الطَّرِيقُ إلى تَعْزِيزِ «الثَّقَافَةِ العِلْمِيَّة»

٨-١) مَدْخَل:

لـن يكون الخُرُوجُ سَهْلاً من شَرْنَقَـةِ «ثقافة الكلام والإنْشائيّات والجَدَلِ» التي تُغَلِّفُ أبْعَادَ «الثَّقافة العربيّة»، وتُسَيْطِرُ على أُطْروحاتِها في صِراعٍ يُحِيطُ به الغُمُوضُ والتّعْميم، وتُهَيْمِـنُ عليه الأساليـبُ البلاغيّة، والحماسُ الوِجْدانيّ، والانْفعـالاتُ الآنيّة؛ ولن يَتَحَقَّقَ مِثْـلُ ذلـك الخُرُوجِ بين يـوم وليلةٍ، ولكنّه سيكون بالضّـرورة نِتَاجَ تَراكُمَـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ على مـدى عُقُودٍ من الجُهْـدِ والمُثَابَرَةِ والتَّأْصيل؛ ولذا فإنّ الطّامحين إلـى إيجاد حُلُولٍ سَهْلَةٍ وسريعـةٍ سيُصَابُـونَ بخَيْبَةِ أملٍ، وهي ذات الخَيْبَةِ التي هَيْمَنَتْ علـى «مُحَاوَلاتِ النَّهْضَةِ» و«برامِـج التَّنْميةِ» على مدى قَرْنَيْن. لقد جَرَّبَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّة» كُلَّ شيءٍ في مُتُونِ الـكلام وشُرُوحاتِ الجَدَلِ، كمـا جَرَّبَتْ الانْقِلابَاتُ والثّـوْرَاتُ بأنْوَاعِهَا، ولكنّها لم تُجَرِّبْ بعْد تلك «الثَّقافة» التي اسْتَطاعَتْ أنْ تُحَقِّقَ لـ«المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» مجْدَهَا وإنْجازاتِها، ألا وهــي «الثَّقافة العِلْميّة»؛ فتجـارِبُ «المُجْتمعات العربيّة» ومُحَاوَلاتُهَـا، لتوطينِ التّقْنية ونَقْـلِ العلوم، والوُلُوجِ إلى عَالَمِ الكِبَـارِ إنْتاجاً وإسْهَاماً في «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة»، تَتَفرَّعُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ، ولكن لا يُمْكِنُ لها أنْ تَتَحقّقَ في فَرَاغٍ لأنّه لا بُدَّ لها من «وَسَطٍ» يَدْعَمُ مُقَوِّمَاتِهَـا، ويُكَيِّفُ صُوَرَهَا، ويَضْبِـطُ اتِّجاهاتِها، ويُغَذِّيهَا بالعُقُـولِ والمَواهِبِ، ويَسْنُدُهَا بالسّياساتِ والقرارات.

إنّ قضيّةَ «الثَّقافة العِلْميّة» قضيّةٌ جَامِعَةٌ شَامِلَةٌ، تَبْدَأُ من المنْزل في سنوات التَّكْوين المُبَكِّـرَة، عُبُوراً بالمراحِل والمُؤسّسَات التّعليميّـة المُخْتلفة، ومُرُوراً بمُخْتلف التّفاعُلاتِ الاجْتماعيّـة والفِكْريّـة والفَعَّاليّاتِ الحياتيّـة والثّقافيّة، والْتِقَـاءً بكُلِّ الوَسَائِـلِ المُتَعَدِّدَةِ

والمُتَجَـدِّدَةِ فـي «عَالَم الاتِّصالات». من ذلـك المُنْطَلَقِ فإنّ النَّظَرَ إلـى الوَسَائِلِ الكفيلةِ بنَشْـرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في أرْجَـاءِ المُجْتمع، وتأْصيلِها في الفِكْرِ والسُّلُوك، وتَعْزيزِهَا في مَظَاهِـرِ الحيـاة المُخْتلفة، يُصْبِحُ أمْراً لا مناص منه إذا كنّـا جَادِّين في «عمليّة التَّنْمية» وحريصين على «مَشْرُوعِ النَّهْضَة».

وأمّـا وَسَائِلُ تَعْزيزِ «الثَّقافة العِلميّة» ونَشْرِهَا في المُجْتمع فتَتَنَوَّعُ وتَتَعَدَّدُ [٣٤]؛ فمنْها الجمعيّـات والهيئـات العِلْميّة، والمطْبُوعـات بأنْواعِهـا، والمتاحِف والمعارِض العِلْميّة، والنّـوادي العِلْميّـة، والرّحْلات العِلْميّـة، والمُحاضرات والنّـدوات العامّة، وغير ذلك من وَسَائِـطِ «التّفَاعُـلِ الاجْتماعيّ». أمّا أبْرز تلـك الوَسَائِطِ وأكْثرها فعّاليّـةً فهما: «التَّعْليم» و«الإعْـلام»، والمَقْصُودُ بـ«الإعْلام» هنا نَوْعَاهُ: «التَّقْليـديّ» و«الجديد»؛ وأمّا قناةُ توصيل «الثَّقافـة العِلْميّـة» إلى «التّعليم» و«الإعْلام»، فهـي «التَّرْجَمَةُ والتَّأليـفُ العِلْميّ». وعندما نَقِـفُ - بقَدْرٍ مـن الإسْهَابِ - أمام هذا «الثُّلاثـيّ الحيويّ» من وَسَائِطِ «نَشْـرِ المَعْرِفَة»: (التَّعْليـم - الإعْـلام - التَّرْجَمَة والتَّأليـف العِلْميّ)، فإنّ ذلك يعودُ إلى مـا يَتَمَتَّعُ به هذا «الثُّلاثـيّ» من فَعّاليّـةٍ عَالِيَةٍ وتَأْثيـرٍ كبيرٍ في تَهْيِئَةِ «البيئـة الثّقافيّة والفِكْريّـة والعِلْميّة» لـ«إنْتَـاج المَعْرِفَة» وتَطْويرِهـا، ولتَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ ولـذا سنَتَطَرَّقُ فيما يلي إلى هذا «الثُّلاثيّ الحيويّ» ونَسْبُرُ بعْض أغْوَارِهِ وتفاصِيله.

٨-٢) وسائِل تَعْزيز «الثّقافة العِلْميّة»:

٨-٢-١) التّعْليم:

لـم يَعُدْ سِـرّاً أنّ التَّحدِّي الأكْبر أمام «قضيّـة التّنْمية» هو «تَحَـدٍّ مَعْرفيٍّ»، ولم تَعُدْ القضيّةُ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لكي نُدْرِكَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي المَدْخَلُ إلى مُوَاجَهَةِ ذلـك «التَّحَـدِّي»، والتَّعَرُّفِ علـى أدواتِه، والتّغلُّبِ علـى صِعَابه؛ وليس سِـرّاً - أيضاً - أنّ «التّعْليم» - بأشْكَالِهِ وأنْمَاطِهِ ومُسْتوياتِه المُخْتلفة - يُمَثِّلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في هذا «التَّحدِّي المَعْرفـيّ». وتَزْدادُ أهْميّةُ «التَّعْليـم» كُلّما قطعنا مراحِل أكْبر على طريق «الألْفيّة الثّالثة»؛

فـ«التَّعْليـمُ المُسْتَمِرُّ مدى الحياة» هو من أبْرز معالِم «مُجْتمع المَعْرِفَة»، كما أنّ «التّفْكير» و«حَـلّ المُشْكلات» هما (الأساسان الجديدان للتّعْليم في القَرْنِ الحادي والعشرين)[٩٩]. وفـي هذا الإطَـارِ يُؤكِّدُ صوما بوجـودة[٩٩] أهميّـة: (أنْ نَتَخَلَّى عن الفِكْـرَةِ التي ترى أنّ باسْتطاعتنا أنْ نُعَلِّمَ طُلّابَنَا «التّفْكير» دون أنْ يكون لديهم أساسٌ قويٌّ من «المَعْرِفَة»، كما يَنْبَغِي أنْ نَتَحَرَّرَ من الاعْتقاد السّائِدِ بأنّه يُمْكِنُ تَدْريسُ «المعْرِفَةِ» دون حَمْلِ الطُّلّابِ على «التَّفْكيـر»؛ فـ«المَعْرِفَةُ» و«التَّفْكيرُ» توأمان مُتلاصِقَانِ، ولذا يجبُ علينا إتّبَاعُ منْهج تَرْبويّ يقـومُ على إعْطَاءِ الطُّلّاب المفاهيم المِحْوَرِيّة ومُسَاعَدَتِهِـمْ على إتْقَانِهَا والتَّفْكيرِ بها)، ومِثْـلُ هذه الرُّؤيـة - في رأيه - تَسْتَدْعِـي: (تَمَثُّل مَبَاحِث «الثَّقافة العِلْميّـة» في أيِّ مَنْهَجٍ للعلـوم). ولذا فإنّـه لا يُمْكِنُ تَحْقيقُ «النَّقْلَـة النَّوْعيّة» المَطْلُوبَة لطَرْقِ أبْـواب هذا «المُجْتمع الجديد» إلاّ عبْر تَعْليم جَادٍّ يَهْتَمُّ بـ«توظيف المُنْتَج التّعْليميّ في خِدْمَةِ المُجْتمع» عبْر اسْتيعاب عَنَاصِـرِ «الثّقافـة العِلْميّـة» ومُقَوِّمَاتِهَا، وتوسيع رُقْعَـةِ «التَّفاعُلِ العِلْميّ» عبْـر إقْرَارِ البرامِج والأنْشِطَةِ والمُقَرَّرَاتِ العِلْميّةِ المُنَاسِبَةِ لكُلِّ الدَّارسين في مُخْتلف المراحِل الدّراسيّة.

لا بُدّ من الاعْتِرَافِ بأنّ «ثقافة الإنْشائيّاتِ والجَدَلِ والكلاميّاتِ» وأساليب «الاسْتِظْهَارِ والاجْتِـرَارِ والتّلْقين» قد تَغَلْغَلَتْ فـي «النِّظَام التَّعْليميّ» في «المُجْتمعات العربيّة»؛ وقد تَهُونُ القضيّـةُ، وتَسْهُـلُ طُـرُقُ العِلاج، لو أنّ هـذا الأمْرَ بَقِيَ فـي حَيِّزِ التّرْكيزِ علـى «الدِّراسات الإنْسانيّـة»، والتّسْليـم غيـر المُبَـرَّرِ بأولويّتِهَـا علـى غيرها مـن «العلوم الحديثـة»، ولكن المُشْكلة أدْهَى وأمَرّ، فقد أفْلَحَتْ «الثَّقافةُ العربيّةُ» في تَحْويلِ «العلوم الحديثة» ومناهجها، وطُـرُقِ تَدْريسِهَا، ومعاييـرِ تَنْفيذِهَا، ووَسَائِلِ تَقْييمِهَا، إلى مُجَـرَّد «عُلوم نظريّةٍ» تَكْثُرُ فيها الشَّكْليَّاتُ، وتُهَيْمِنُ عليها «ظَاهِرَةُ الاسْتِظْهَارِ»، وتَنْعَدِمُ وَسَائِلُ التَّجْريبِ، وتَتَقَطَّعُ بها السُّبُلُ عـن طَرَائِـقِ «التّفْكير العِلْميّ». وهكـذا تَمَكَّنَتْ «المَوَاهِـبُ العربيّةُ» مـن وَأْدِ تَعْليم «العلوم والتّقْنية» عندما مَسَخَتْهَا عن صُورتِها الحقيقيّةِ - فِكْراً ومَنْهَجاً وتَعَلُّماً ومُمَارَسَةً -، وجَعَلَتْ منهـا مُجَرَّدَ شَـكْلٍ آخر من أشْكَالِ «الدِّراسـات الإنْسانيّة»، علـى الرّغم من الاخْتلافات الجوهريّـة بينهما في المعاييـرِ والمَنْهَـجِ والأدواتِ والتّفْكيرِ والتَّحْفيزِ وطُـرُقِ المُمَارَسَةِ والعمـل. وهكذا بَقِيَتْ مُعْظَمُ إشْكَالاتِنَا التّعْليميّةِ تَصُـبُّ في خَانَةِ «الثّقافة» التي لم تَتَعَلَّمْ

كيف تَضَعُ المعايير الدّقيقة، وتُطوِّرُ المَنْهَجيّةَ العمليّة؛ وغَابَتْ عنها تلك «العَقْلانيّةُ» التي تَهْتَمُّ بموازين صَارِمَةٍ، وتتعاملُ مع «رُوحِ العصْرِ» وخَصَائِصِهِ المُمَيِّزَة.

إنّ البَحْـثَ عن «نُقْطَةِ التَّوَازُن» في «البَنْـدُولِ الفِكْريّ» للعَالَم العربيّ يعودُ إلى قُرُونٍ طويلـةٍ مَـرَّتْ بها الأُمَّـةُ، سَيْطَرَتْ فيهـا الاضْطِرَابَاتُ الفِكْريَّـةُ، والتَقَلُّبَـاتُ الاجْتماعيّةُ، والإخفاقـاتُ السياسيّةُ، والهزائِمُ العَسْكريّةُ، ويَبْقَى «التَّحَـدِّي» في أَقْسَى أَشْكَالِه، ونحن نَدْلِـفُ إلـى العُقُودِ الأولى مـن «الأَلْفيّـة الثّالثة». ومن الوَاضِـحِ - انْطلاقاً مـن الطّبيعةِ المَعْرفيّـةِ لهذا العَصْـرِ - أنّ «نُقْطَةَ التَّوَازُنِ» لن تَتَحقّقَ إلاّ فـي «وَسَطٍ تَعْليميٍّ - مَعْرفيٍّ» كثيفٍ تقومُ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بدَوْرٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِزٍ، بحيث تَتَمَكَّنُ - عبْر أدواتِها الرّصينة وتفاعُلاتِهـا المُنْضَبِطَةِ ومُبادراتِها الحيويّة - من تَطْويرِ «تجارِب تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ أَسْئلَتَها، وتُبَلْـوِرُ إجاباتِهـا، وتُوَاجِهُ تحدّياتِها، وتَبْنِـي عُقُولَهَا في «مُجْتمع المَعْرِفَـة» المُنْطَلِقِ دون تَوَقُّفٍ، والمُتَسَارِعِ دون انْتِظَار.

إذاً يَنْبَغِـي أنْ نصـوغَ أولويّات تَعْليمنا وفْق «رُوحِ العَصْـرِ» - في وضوحٍ وجِدِّيّةٍ -نحو التّوَافُـقِ مع «مُجْتمع المَعْرِفَة»، والتَّواؤم مع شُرُوطِـهِ ومُقْتضياتِه، وبذلك نَضَعُ «الحِصَانَ أمـامَ العَرَبَـةِ» لنَقْضِي علـى العَوائِقِ المُسَبِّبَـةِ لتَعْطيلِ «التّنْميـة» وتوليدِ «البَطَالَـة» ووَأْدِ «الإنْتاجيّة»، ولتَتَحرَّكَ القَافِلةُ - بعُنْفُوانٍ وحيويّةٍ - حَامِلةً كُلّ مضامينِها من عُلومٍ إنْسانيّةٍ واهْتمامـاتٍ اجْتماعيّـةٍ وطُمُوحَاتٍ تُعانِقُ سمـاءَ «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ ومِـن المُهِمِّ - في هذا السِّيَاقِ - أنْ نُراعِي أبْعَادَ ما طَرَحَهُ كِتَابُ «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بأنّ: (ما يُخَبِّئُهُ المُسْتَقْبَلُ للأَفْرَادِ من البشر وللأُمّة وللعَالَم يَعْتَمِدُ بشَكْلٍ كبيرٍ على الحِكْمَةِ التي يَسْتَخْدِمُ بها البشرُ العِلْـمَ والتّكْنولوجيا. وهذا، بدَوْرِهِ، يَتَوَقَّفُ على طَابَعِ وتوزيعِ وفَعَّاليّةِ «التَّعْليم» الذي يَتَلَقَّاهُ النّاس)[٩٤]. من هذا المُنْطَلَقِ فإنّ اخْتِرَاقَ «الثّقافة العِلْميّة» لـ«النِّظَام التّعْليميّ»، وتَغَلْغُلَهَا فـي نسيجِه الإداريّ والمَنْهَجيّ والتّخْطيطيّ والتّجْهيزيّ، شَرْطٌ لا مناص منه إنْ كنّا نُريدُ فِعْـلاً الوُلُوجَ - باقْتِدَارٍ - إلى «مُجْتمع المَعْرِفَـة» الذي يَضَعُ شُرُوطاً قَاسِيةً على الرّاغبين في الانْضمام إليه (انْظر: الفَصْل السّادس)، وعلى رَأْسِهَا «الشَّرْطُ الثَّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في مُخْرَجَـاتٍ قَادِرَةٍ على تَمَثُّـلِ «رُوحِ التّنْمية»، والتّفاعُلِ مع «العَصْـر»، واسْتيعابِ مُعْطياتِه، وتَطْويعِ إيجابيّاتِه، وتَقْليصِ سَلْبيّاتِه.

٨-٢-١- أ) الأولويّة التي لم تَنْضَجْ في «اسْتراتيجيّات التَّنْمية» في العَالَم العربيّ:

لـن نَأْتِـيَ بجديدٍ عندما نقولُ إنّ «التَّعْليـم» يَقَعُ على قِمَّة هَـرَم الأولويّات في نَهْضَةِ الأُمـم، ولكـن المُهِمّ أنْ تكون هذه الحقيقـة هَاجِساً دَائِماً، فلا تَغْفَـلُ عنها العَيْنُ لحْظةً، وهذا مـا أَدْرَكَتْهُ «الدُّولُ المُتَقدِّمَـةُ»، فكان هَاجِسُهَا الدّائِمُ هو أحْـوالُ «التَّعْليم» ومعاييرُ تَقْويمِه وأدواتُ قِياسِه، وبالذّات فيمـا يَتَعَلَّقُ بمجالاتِ «الرّياضيّات» و«العلوم» و«التّقْنية»؛ فـ«المُجْتمـعُ المُعَاصِـرُ» مُجْتمـعٌ يَرْقَـى بهذه العلـوم، ويَنْمُو عبْـر تفاعُلاتِهـا المُجْتمعيّة والإنْتاجيّـة والبَحْثيّـة والفِكْريّة، وتَنْدَثِرُ إمْكاناته عندما يَضْمَحِـلُّ تَأْثيرُ «العلوم الحديثة» في مُؤَسَّسَاتِه التّعْليميّة والبَحْثيّة والثّقافيّة والاقْتصاديّة والإعْلاميّة.

تلـك بدهيّاتٌ أَدْرَكَتْهَا «الأُمَمُ المُتَقدِّمَةُ»؛ فكانــتْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهَا عندما تَشْعُرُ بأنّ تَعْليمها يتراجع؛ فأَطْلَقَتْ أمريكا صَرْخَةً مُدَوِّيَةً بشَأْن «التَّعْليم» في الخمْسينات من القَرْنِ الماضي عندمـا انْطلق القَمَرُ الرُّوسيّ الأوّل (سبوتنيـك) ليُمَثِّلَ تحدِّياً خطيراً لإمْكانات أمريـكا العِلْميّة والتّقنيّة، وارْتَجّتْ أرْجاءُ أمريكا مَـرَّةً أُخْرى في مُنْتَصَفِ الثّمانينات من القَـرْنِ ذاته عندمـا شَعَرَتْ بتدهْورِ «التَّعْليـم» في مجالَيْ «الرّياضيّـات» و«العلوم» لتَشْرَعَ فـي برنامجٍ شَامِلٍ شِعَارُهُ «أُمّةٌ في خَطَـرٍ»؛ لتُوَظِّفَ في هذا البرنامج خيرة العُقُولِ، وأقْدر الكفاءات، وأفْضل الإمْكانات. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مُؤلّفو كِتَاب «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بقولهم: (لـدى الطُّلّاب فـي المدْرسة الابْتدائيّة اهْتمـامٌ عَفَويٌّ بالطّبيعة والأرْقـام. وبالرّغْم من ذلـك فإنّهم يَتَخَرَّجُونَ في المدْرسة خَائِفين من الرّياضيّات وكَارِهين للعلوم بحُجَّةِ أنّهما مُمِـلّان للغاية ومِـن الصّعْب تعلُّمهما. إنّهـم يرون «العِلْمَ» فقط كنشـاطٍ أكاديميٍّ، وليس كوسيلة لفَهْم العَالَم الذي يعيشون فيه. إنّ عَواقِبَ هذا النُّفُورِ وخيمةٌ، لأنّها تَعْنِي أنْ تكون حياة أعْدادٍ كبيرةٍ من الطُّلّاب مَحْدُودَةً، وأنْ يكون مُجَمَّعُ المَواهِبِ للأُمّة الذي يُجْلَبُ منه العُلماءُ وعُلماءُ الرّياضيّات والمُهندسون أصْغر ممّا يَنْبَغِي)[٩٤].

مـن هذا المُنْطَلَقِ، تكـون المَسْؤوليّةُ المُلْقَـاةُ على عَاتِقِ «المُجْتمعـات العربيّة» هي الأضْخَـمُ في دَلالاتِهَا، والأشَدُّ فـي تفاصيلِها، والأعْقَدُ في مُتَطَلَّبَاتِهَا؛ ففي نهاية المطاف

لا يُمْكِـنُ أنْ يَخْتَلِفَ عَاقِلان على أنّ «التَّعْليم» هو الـذي يُؤسِّسُ للعُلماء والأطبّاء والقُضاة والمُهندسيـن وأساتـذة الجامعـات وغيرهم من فِئَـاتِ المُجْتمـع وشَرائِحِـهِ المُخْتلفة، والبَاحِـثُ الجَادُّ يُـدْرِكُ أنّ أيَّ خَلَـلٍ يُصِيبُ المُجْتمع هـو في الأساس خَلَلٌ فـي التّعْليم»، وهـو أيضاً خَلَلٌ في «الثَّقافـة» لأنّه لا تَخْفَى على لبيبٍ درجةُ التّفاعُلِ القويّ بين «التَّأْسيسِ الثَّقافيّ» الصّحيح، و«خُطَطِ التَّعْليم» الفَاعِلَة.

مـن المُؤسِف أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تُفْلِحْ في صِيَاغَـةِ «إسْتراتيجيّةٍ مُتكَامِلَةٍ للتَّعْليـم» – ذات أهْـدَافٍ قَابلةٍ للقِياس ومُرْتَبِطَةٍ بـ«عناصِر التَّنْميـة» – تَسْتطيعُ أنْ تَجْتَاحَ خلايا تلـك المُجْتمعات في «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تتعاملُ مع «مُقْتضياتِ التَّنْمية» و«عُلوم العَصْرِ» و«أخْلاقيّاتِ العمل» و«مُقوِّمَاتِ الإنْتاج». لقد راحتْ هذه المُجْتمعاتُ تَغْرَقُ في إنشائيّاتٍ لا طَائِـلَ من ورائها، ومُؤتمراتٍ تَنْفَضُّ لتَنْعَقِدَ في طُرُوحَاتٍ فَضْفَاضَةٍ تَلْفِظُهَا «رُوحُ التَّنْمية» التـي تُـدْرِكُ أنّ مَنْشَـأَ مِثْلِ تلك الطُّرُوحَـاتِ هو «فَـرَاغٌ تَعْليميٌّ»، وعدم فَهْـمٍ لخَصَائِصِ «التَّنْميـة». لـو انْشَغَلَ الجميـعُ بالبرامِجِ الفَاعِلَـةِ في السّعـي لضَخِّ «إكْسِيـر التَّنْمية» في المُخْتبرات والمكْتبات، وتَطْويرِ المهارات والأنْشطة اللّاصفيّة، والمُراجَعَاتِ الموضوعيّة فـي التّطْويـرِ والتّقْويم، واسْتيعابِ مُقَوِّمَاتِ «التّفْكير العِلْمـيّ»، لما كان لدى أحد ما يَكْفِي مـن الوَقْت للدُّخُولِ في سِجَـالاتٍ تُكَرِّرُ نفْسها وتَجْتَرُّ مُعْطياتِها، ولا تُفْلِحُ في تَأْسيسِ «رُؤىً تَنْمويّةٍ – عِلْميّةٍ» تَتْرك بَصَمَاتِهَا المُتَرَاكِمَةَ على «التَّعْليم» و«المُتَعلِّمين».

ومن المُشْكلات التّعْليميّة المَلْمُوسَةِ في «خُطَطِ التَّعْليم» وجود «فَجْوَةٍ» تَزْدَادُ اتِّسَاعاً بيـن تَعْليم «العلوم» وطُـرُق تَعَلُّمِهَا، وبين الاسْتيعاب الحقيقيّ لهـذه العلوم، بحيث تُصْبِحُ مُرْشِـداً ومُوَجِّهاً في التّفْكيرِ والقـراراتِ والمُمَارَسَات، ولا يُمْكِـنُ تَحْجيمُ هذه «الفَجْوَة»، وتَقْليصُ سَلْبيّاتِهَا، إلاّ عبْر رَبْـطِ «التّعْليم» بـ«ثقافةٍ عِلْميّةٍ» حيويّـةٍ؛ فـ«التّعْليمُ» يَنْبَغِي أنْ يكون أداةً لتَطْويرِ «ثقافة المُجْتمع»، ورَفْعِ درجة وَعْيه، لأنّه البوابّة الرّئيسة التي يَعْبُرُ منها مُعْظَـمُ المُوَاطِنين – إنْ لم يكنْ كُلُّهم –، ويُعْتَبَرُ «النِّظَامُ التَّعْليميُّ» هو «النَّاقِلُ الاجْتماعيّ للمَعْرِفَـة»[٩]، حيـث إنّ: (المدرسـة تَلْعَـبُ دَوْراً لا يُمْكِـنُ تجـاوزُه كمكانٍ لتَعَلُّـمِ المَعْرِفَةِ والثَّقافة العِلْميّة)[٨٣].

كُلُّ ذلـك يَعْنِي ضَرورة أنْ تَضْبطَ المُجْتمعاتُ النّامية «مُؤشِّرَ البَوْصَلَة» على الاتِّجَاهِ الصّحيـح – في تَطْبيقٍ نزيـهٍ وحيويّةٍ فَاعِلَةٍ – حيث يَنْبَغي أنْ يكـون الشِّعَارُ الرّائِدُ لتَعْليم «الأَلْفيّـة الثّالثة» هو: (التَّعْليمُ لعَصْرِ «مُجْتمع المَعْرِفَة») [٩٦] بحيث يَحْرِصُ «التَّعْليمُ» على تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّـة» القَادِرَةِ على إسْنَـادِ ركائز «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتَرْسيخِ قِيَمه، وتَعْزيـزِ تفاعُلاته، عبْـر إتاحة الإمْكانات المُعَاصِرَة لأفْرَادِ المُجْتمـع كافّةً؛ وهذه «البِنْيَةُ التَّحْتيّـةُ» بدَوْرِهَا مَسْؤولةٌ عن توليدِ الفُرَصِ، وتَطْويرِ المهاراتِ، وتَأْصيلِ المَعْرِفَةِ، وتَنْميةِ المَدَارِكِ، وإحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّة» في «الحركة التَّنْمَويّة».

٨-٢-١- ب) نَحْوَ «إسْتراتيجيّةٍ تعْليميّةٍ» فَاعِلَة:

يجـب علـى أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ تَعْليميّـة» أنْ تَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ أبْـرز شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة» [٧٨،٩٦] هو تَحَقُّقُ «الشَّرْط المَعْرفـيّ» عبْر إدْرَاكِ ضرورة «التَّكامُلِ المَعْرفيّ» بين مُخْتلـف مُكَوِّنَـاتِ «الفِكْرِ البشريّ» وعَنَاصِـرِهِ في «البَوْتَقَةِ الحيَويّة» التـي تَرْبضُ في قَلْبِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، مع إرْسَاءِ «الرّكيزة الأساس» في هذه «التَّرْكيبة المَعْرفيّة المُعَاصِرَة»، وهي تلك النّاتِجَةُ عن التَّطوُّرَاتِ العِلْميّةِ والمهاراتِ التّقنيّةِ والقُدْرَاتِ الإنْتاجيّة؛ فـ«الثَّوْرَةُ المَعْلُوماتيّـةُ» والمُتَطلَّبَـاتُ التَّنْمَويّةُ تُعَزِّزُ – بوضوحٍ – هَيْمَنَـةَ «المعارِف العلْميّة والتّقنيّة» علـى أنْواع المَعْرِفَةِ الأُخْـرى. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ «التّقْرير العَالَمـيّ لليونسكو» – الصّادر في عام ٢٠٠٥م – حيث يُقَرِّرُ أنّ: (مَفْهُوم «مُجْتمع المَعْرِفَة» يُوضِّحُ أنّ سياسات تَعْليم العلوم والتّكْنولوجيّات تُشَـكِّلُ اسْتِثْماراً اقْتصاديّاً واجْتماعيّاً له أولويَّتُـه) [٨٣]؛ ولذا فإنّ «إعْطَاءَ الأولويّـة للعلوم والتّقنيّة» فـي «إسْتراتيجيّة التّعْليم» وخُطَطِـهِ ومَنَاهِجِه يُصْبحُ ضَرورةً لا مناص منها لإنْجـاز الطُّمُوحَاتِ التّنْمَويّـة، وضمان عدم انْحراف «قَافِلَـة المُجْتمع» عن الطّريق إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة».

وأمّـا «الشَّـرْطُ الاجْتماعيُّ» فـي تَرْكيبـة «مُجْتمع المَعْرِفَـة» فيَسْتَدْعِـي «المُشَارَكَةَ الجماهيريّـة» الواعيـة، و تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعاً مِحْوَرِيّاً لتَحْقيـقِ تلك المُشَارَكَةِ

ومُوَاكَبَـةِ عَصْرِ «مُجْتمع المَعْرفَة»؛ لأنّ أبْرز خَصَائِصِ هذا «المُجْتمع» هو الكفاءَةُ العَاليةُ فـي تَأْميـن (النَّفَاذ الشَّامِـل للمَعْرِفَة)[83]، فوفْـق «التّقْرير العَالَميّ لليونسكـو»[83] فإنّ: (مُجْتمعات المَعْرِفَة تَرْتَكِزُ على إدْمَاج ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبر)، ويَذْهَبُ التّقْريرُ إلى أبْعد مـن ذلك فيقول: (لـن تَتَمَكَّنَ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» في القَـرْنِ الواحد والعشرين من بُلُوغ حِقْبَـةٍ جديدةٍ من التّنْمية الإنْسانيّـة والمُستَدَامَةِ إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِـلٍ للمعارِف، بَلْ أيضـاً على مُشَارَكَةِ الجميع في «مُجْتمعـات المَعْرِفَة»). وهكذا يَبْرُزُ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ»، ليُشَكِّلَ رُكْناً أساساً مـن أرْكَانِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وليُمَثِّلَ مَطْلَباً لازمـاً لتَحْقيـقِ «التَّنْمية»؛ ممّـا يُحَدِّدُ - بالضّرورة - مـدى نجاح «المَنْظُومَـةِ التَّرْبويّة - التّعْليميّـة» أو إخْفَاقِهَا فـي صَوْغِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتوليـدِ «الإرادة الجماعيّة» الوَاعِيَةِ القَادِرَةِ على التَّغَلُّبِ على الحَواجِزِ الاجْتماعيّة والمَعْلُوماتيّة والمَعْرفيّة والثّقافيّة. وأمّا إذا لـم يَتَحَقَّـقْ الهدفُ الأساسُ، وهو عدم اسْتِبْعَادِ أحدٍ مـن المُشَارَكَة الحيويّة في تفاعُلاتِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، فإنّ «المَنْظُومَةَ التّرْبويّة - التّعْليميّة» تكون قد فَشِلَتْ في «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَـةِ لـ«تحدّيات» هـذا المُجْتمع ومُقْتضياته، وتكـون المُحَصِّلَةُ الحَتْمِيّـةُ هي «ضَعْفُ كفاءَة المُنْتَج التّعْليميّ».

يَنْبَغِـي - إذاً - أنْ يكـون لـ«الثّقافـة العِلْميّـة» حُضُورٌ قـويٌّ في المناهـج والأنْشطة اللّاصفّيّـة، بحيث يَتَحقّقُ ما اعْتَبَرَهُ نادر فرجاني «الهدف النّهائيّ للنَّسَق التّعْليميّ» وهو: (تَزْويـدُ البشر، بلا تَفْرِقَةٍ، بالمعارِف والمهـارات والقُدْرات اللاّزمة للمُشارَكَة - بفعّاليّةٍ وإبْـداع - فـي تَطْويرِ المَعْرِفَةِ وعمليّات التّنْظيم والإنْتاج فـي المُجْتمع، وبصُورةٍ مُسْتمرّةٍ ومُتَطَوِّرةٍ، قَائِمَةٍ على تَأْكيدِ الهُويّة الحضاريّة من ناحيةٍ، واعْتِمَادِ «العِلْم الحديث» أساساً لاتِّخـاذ القـرارات من ناحيةٍ أُخْـرى)[11]. إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي جُـزْءٌ أساسٌ من تلك «الذِّهْنِيّـةِ التَّنْمَويّة» التي طالب بها غازي القصيبي؛ لأنّها حسب قوله: (مُرْتَبِطَةٌ ارْتباطاً عُضْويّـاً بـ«العِلْم»، و«العِلْمُ» يَرْتَبِطُ ارْتباطـاً مُبَاشِراً بـ«نِظَامِ التّعْليم»، ووَضْعُ «التّعْليم» في العَالَـمِ الثّالث مأْساةٌ تُحْزِنُ الأعْدَاءَ قبل الأصْدقاء. ولعلّنا هنا نَضَعُ أيدينا على «المِفْتَاح السِّحْـريّ» للتّنْميـة؛ المِفْتَاحُ الـذي يَسْتَحِيلُ فـي غِيَابِهِ تَحْقيـق «التّنْمية» رغْـم توفُّر كُلِّ

عناصرِهــا، ويُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ «التَّنْمية» عند وجوده حتى مع غِيَابِ عَدَدٍ من عَوَامِلِهَا، هذا المِفْتَــاحُ هــو «التَّعْليم»)[10]. وأمّا أحمد زويل[70]، فيُورِدُ مــا ذَكَرَهُ مهاتير محمد في حِوارٍ بينهمــا مــن أنّه كان (لا بُدَّ من خَلْــقِ حركةٍ في هذا البلد، وقد اسْتَلْــزَمَ ذلك تَغْيِيرَ عَقْلِيّةِ المُواطِــن الماليــزيّ) ليَذْكُرَ أنّ أحد العُنْصُرَيْنِ اللذين لجــأ إليهما لتَحْقيقِ ذلك الهدف هــو: (تَغْييرُ نظــام التَّعْليم حتى يُعَادِلَ التَّعْليــمَ المُتقدِّمَ في العَالَــم، ويتفاعل مع الثَّوْرَاتِ العِلْميّــة المُعَاصِرَة). وأمّا أسامة عبد الرحمن[12]، فيرى أنّ «التَّعْليم»: (أداةٌ رئيسيّةٌ في تَحْقيقِ التَّغْييــر الاجْتماعيّ والثّقافيّ والاقْتصاديّ)؛ لأنّ («التَّعْليــم» يُعْتَبَرُ أحد المداخِلِ الرّئيسيّــة لـ«التَّنْمية»، وبتكامُلِهِ مع «التَّدْريب» يُمَثِّلُ المُرْتَكَزَ الأساسيّ لزيادة فَعّاليّة وأداء «إدارة التَّنْميــة» ممّا يَجْعَلُ «التَّعْليم» مُسَاعِداً علــى إحْدَاثِ تَغْييرٍ في الاتِّجاهات والسُّلُوك يَتَّفِــقُ مــع مُقْتَضيــات «التَّنْمية»). وأمّــا فلاح سعيد جبــر[75]، فيرى ضــرورة (الاهْتمام بسياسات «التَّعْليم» وإعادة بَرْمَجَتِهَا، ابْتداءً من مراحلها الابْتدائيّة، ووصُولاً إلى مراحِلِها الأكاديميّــة العُلْيا، وفْق برامِج مُوَجَّهَةً لخِدْمةِ «التَّنْمية الشَّامِلَة»)، ويرى - أيضاً - أنّه (لا بُــدَّ من تَحْقيقِ الرَّبْطِ المُبَاشِرِ بين التَّقَدُّم العِلْميّ والتّكنولوجيّ وبين السِّياساتِ التَّعْليميّة والتَّرْبويّة من أجل إيجاد البيئة المُلائِمَةِ لخَلْقِ وتَطْويرِ التّكْنولوجيا).

عبْــر تلك الرُّؤى الجَازِمَةِ بالــدَّوْرِ الطَّليعيّ لـ«التَّعْليم» نجــد أنّ المُرْتَكَزاتِ المِحْوَرِيّةِ لتلك «العمليّة التَّربويّة - التَّعْليميّة» الحَاسِمَة، هي: («تَطْويرُ المَنَاهِج التَّعْليميّة» - «إعْدادُ المُعَلِّم»- «تَحْسينُ البيئة التَّرْبويّة»- «برامِجُ النَّشاط اللاصَفِّيّ»)؛ وكُلُّها تَحْتَاجُ إلى تفاعُلٍ مع «القِيَــم الثَّقافيّة» و«المُنْطلقَاتِ التَّنْمويّة» التي يَنْبَغِــي غَرْسُهَا وتَأْصيلُها؛ وهكذا - على سبيــل المِثال - يُصْبِــحُ من الضّروريّ كما يقــول علي علي حبيش: (الحُصُــولُ على مُعَلِّمٍ قَادِرٍ على بِنَــاءِ الشّخْصيّةِ المُسْتقلّة القَادِرَة على التَّعَلُّم الذّاتيّ، والبَحْثُ عن المَعْلُومات في مصادرِهــا، وعلى انْتِقَــاءِ المَعْلُومة، وتَحْليلِها ونَقْدِهَا وتَنْظيمِهــا، وعلى الاسْتِخْدام الأمْثل لهــا، وتوظيفِهــا في حَلِّ المُشْــكلات)[39]. لذا يَنْبَغِــي الحِرْصُ على إعْطَــاءِ عمليّة «إعْداد المُعَلِّــم» أولويّةً؛ لتَطْويــرِ قُدْرَاتِهِ المَعْرفيّةِ ومَدَارِكِــهِ الثّقافيّة وآفاقِهِ التَّرْبويّــة لتَتَوَاءَمَ مع مُتَغَيِّــرَاتِ «العَصْرِ» ومُسْتَحْدَثَاتِــه، ولا يَنْطَبِقُ هذا فقط على «مُدَرِّسي العلوم» ولكنّه يَنْبَغي

أنْ يَشْمَـلَ كُلَّ شرائح المُعَلِّمين ليَسْتطيعوا أنْ يتحدَّثوا بـ«لُغَةِ العَصْر»، ويُسْهِمُوا في تَشْكيلِ الرُّؤى المُعَاصِرَةِ لدى طُلّابهم، وتَطْويرِ مهاراتِهم في «التَّفْكيرِ العِلْميّ» والنَّقْدِ الموضوعيّ.

وهكذا نجدُ أنّ الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«التّعْليم» في «صِنَاعَةِ المُسْتَقْبَلِ» بمُكَوِّنَاتِهِ المُخْتلفة يَجْعَـلُ تَأْسيس دَوْرٍ بَارِزٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في «إسْتراتيجيّـة التّعْليم»، وتَعْميق هذا الدَّوْرِ فـي مُخْتلـف التّفاعُلات التّرْبويّـة - التّعْليميّة»، من أبْرز الأولويّـات الوطنيّة التي لا تجوزُ المُزَايَـدَةُ عليها، فكمـا يقولُ جلين سيبورج: (مهمـا كانتْ تَكْلِفَةُ تَحْسيـن التّعْليم، فإنّها اسْتِثْمَارٌ في المُسْتَقْبَلِ يَنْبَغِي أنْ نَلْتَزِمَ به. إنّ التّميُّزَ يُكَلِّفُ كثيراً ولكن التَّوسُّط في الجَوْدَةِ يُكَلِّفُ أكْثر بكثيرٍ على المدى الطّويل)(٤٤). ومن حَقِّنَا أن نَتَوَقَّفَ هنا لنتساءَل: (إذا كانتْ تلك هي ضريبةُ «التَّوَسُّط في جَوْدَةِ التّعْليم» كما يراها سيبورج في مُجْتمعه الأمْريكيّ، فيا تُرى ما هي ضريبة «التَّخَلُّف في التّعْليم» الذي تُعانِي منها مُجْتمعاتُ العَالَمِ العربيّ؟).

٨-٢-٢) الإعْلام:

لا يَخْتَلِفُ اثْنان حول التَّأْثيرِ الكَاسِحِ لـ«الإعْلام» اليوم بوَسَائِطِه المُتَعَدِّدَةِ والمُتَنامية والمُتَجَـدِّدَة؛ فـ«الإعْـلامُ» هو أبْرزُ وسائل «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» التـي تُسْتَخْدَمُ لتَشْكيلِ العُقُولِ، وتَحْريكِ الوِجْدَانِ، والتَّأْثيرِ في المُمَارَسَاتِ، دون الحاجة إلى اللجوء إلى الوسائل القَهْريّة (القُـوَّةُ الصُّلْبَة)؛ ومن أبْرز خصائص «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» أنّها قد تَسْتَغْرِقُ وَقْتاً حتى تَتَغَلْغَلَ وتَتَبَلْوَرَ إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - أشدّ رُسُوخاً وأعْمق تَأْثيراً وأطْول أمداً، وفي إطَارِهَا يَدْخُلُ ما يُعْرَفُ بعمليّات «غَسِيل الدِّمَاغ».

لذا فإنّ «مَنْظُومَةَ الإعْلام» مَنْظُومَـةٌ مُعَقَّدَةٌ بطبيعة عناصرِها التّقنيّة، ومُتَطَلَّبَاتِهَا المِهْنيّـة، ووسائِلهـا المُتَعَدِّدَة، وخياراتِها المُمْتَدَّةِ في آفاق الحيـاة، وتفاعُلاتِها الضَّارِبَةِ في أعْماق المُجْتمع، وتَأْثيراتِها الجَارِفَةِ في العَقْلِ والوِجْدان، وانْعكاساتِها الزّاخِرَةِ بالغَثِّ والسَّميـن، والتَّافه والأصيل، والسُّـمِّ والعَسَل. وهذا - بالضّـرورة - يَسْتَوجِبُ اسْتِحْضَارَ دَوْرِ «الإعْـلام» عندمـا نَتَحَدَّثُ عن «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» ضروريّةٍ لنَهْضَـةِ المُجْتمع، وذلك ما

يُؤَكِّـدُهُ عمر الخطيب[٧٦] بقوله: (إنّ وسـائِل الاتّصــال الجماهيريّ أدواتٌ لتَحْقيق «التَّغيُّر الاجْتماعــيّ» الذي يَخْدِمُ أغْراض «التّنْمية»، كما تَسْتطيعُ وسائل الاتّصال إضْفاء المكانة وتَأْسيس المعاييــر التي تَحْكُـمُ المَسْلَكِيّات التّنْمَويّـة بين الشَّعْب، وتَسْتطيــعُ أيضاً رَصْدَ الانْحراف عن هذه المعايير، وتَلْعَبُ وسائلُ الاتّصال دَوْراً حيويّاً في نَقْلِ المَعْرِفَةِ ونَشْرِهَا، ونَقْلِ نتائِج البُحوث العِلْميّة إلى الجماهير الوَاسِعَة، وتَسْتطيعُ البرامِجُ الشّعْبيّةُ عن العلوم والأحْداث الجَارية وكذلك التّقارير الإخْباريّة والبرامِج الوثائقيّة أنْ تُثِيرَ الفُضُولَ الفِكْريّ الـذي يجبُ تَوَفُّرُهُ حتــى يُمْكِنَ فَهْمَ واسْتيعاب الأفْكار الجديـدة)؛ وفي هذا الصَّدَدِ يُقَرِّرُ عمــر الخطيب أنّه: (غَالِباً ما يكون التَّدَفُّقُ المُتزايدُ للمَعْلُومات هو العَامِلُ الأساسيُّ الذي يَغْرِسُ بذْرة التّغْيير، ويُهَيِّئُ المُنَاخَ المُلائِمَ لـ«التّنْمية»).

٨-٢-٢- أ) الوَاقِعُ العربيّ و«الإعْلام»:

إنّ نَظْرَةً فَاحِصَةً لوَاقِعِ «الإعْلام العربيّ» تُبَيِّنُ ذلك الدَّوْرَ المُتنامي لإعْلام «الغَرائِز والإثارة الحِسِّيّة» الذي تُؤَجِّجُ نيرانه مقاصِد تجاريّةٌ بَحْتَةٌ، أو أهْدافٌ تَخْريبيّةٌ مَحْضَةٌ، أو خَلْطَةٌ مَاكِرَةٌ من ذا وذاك؛ وكُلُّها تَحْرِصُ على جَرِّ «طاقات المُسْتَقْبَلِ» من شبابٍ وشابَّاتٍ إلــى مَحْرَقَةِ المَلَـذَّاتِ الحِسِّيّة، والمتاهــاتِ العَاطِفيّــة، والانْفعالاتِ المُتَمَــرِّدَة، والفَرَاغِ الفِكْريّ، بَدَلاً من سَكْبِ حماسهم وطاقاتهم في قَوالِبَ رصينةٍ من «التَّوَازُنِ الحياتيّ» الذي يُحَقِّــقُ مُتَطلَّبَاتِ «الأَمْنِ الفِكْريّ» من اسْتِقْرَارٍ وإنْجــازٍ وتَطْويرٍ للذّات، ومُعالَجاتٍ رصينةٍ للمُشْـكلات، وحِمايــةٍ للهُوِيّــة. أمّا البدائِــلُ الإعْلاميّةُ الأُخْــرى المَطْرُوحَةُ علــى السّاحة العربيّــة فهي تتراوحُ بين التّعْميق المُسْتمرّ للجَدَلِ العَبَثِيّ، أو الاسْتِفْزَازِ المُتَعَمَّدِ للمُجْتمع عبْــر الإساءة لقِيَمِه وانْتِهَاكِ ثَوابِتِه، والأمثلةُ كثيــرةٌ لنماذج عجيبةٍ على السّاحة الثّقافيّة والإعْلاميّــة العربيّة؛ وكُلُّها تُبْرِزُ مُعْطياتٍ هَشّــةً، لا تَمْتَلِكُ مُقَوِّمَاتِ «الرُّؤية التّنْمَويّة» التي يُدَنْــدِنُ حولها الجميع، ولا تَتَمَتَّــعُ بإرْهَاصَاتِ «الفِكْر الإصْلاحــيّ» الذي يتنادون إليه، ولا تتفاعلُ مع مُتَطلّبَاتِ «رُوحِ العصْرِ» التي يُشِيدُون بها.

بطبيعـة الحال، لا يُمْكِـنُ أنْ نَنْسَى «الإعْلام الرَّسْميّ العربيّ» الـذي فَقَدَ تَأْثيره في خِضَمّ غَزْوِ الفضائيّات، وضَعْفِ الرّقابة أو تراجُعها تحت وَطْأةِ هَجْمَةِ «العَوْلَمَة» وتقْنيات الاتِّصـال الحديثة، وعَجْزِه عـن توفير إسْتراتيجيّةٍ قـادِرَةٍ على المُنافَسَـةِ وطَرْحِ البديل النّاجِـع. وبشَـكْلٍ عامٍّ فإنّنا نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلـى أنّ شيئاً ما لم يَتَغيَّرْ، بَـلْ إنّه ازْداد اسْتِفْحَـالاً على ما خَلُصَتْ إليه «الخُطَّةُ الشّامِلَةُ للثَّقافة العربيّة» الصّادِرَةُ عن «المُنَظَّمَة العربيّـة للتَّربية والثَّقافة والعلوم (أليكسـو)» - في عام ١٩٨٥م - حيث رأتْ أنّ أحد أبْرز السَّلْبيّات في حـال «الثَّقافة العربيّة» هي: (سِيَادَةُ الإعْلام التَّرْفيهيّ السَّطْحِيّ)[١٠٣]. أمّا الهَـمُّ الأكْبَرُ في حياة الأُمّة، وهـو «قضيّةُ التّنْمية» بإشْكالاتِهـا وشُرُوطِهَا، فهو غريبٌ في ساحـات تلك البدائل الإعْلاميّة الجَاثِمَةِ على السّاحة العربيّـة، وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْبَغِي طَرْحُـهُ، دون مُوارَبَـةٍ أو مُجَامَلَةٍ، فهـو: (هل بالإمْكان التَّعامُل مـع التّحدّيات المُعَاصِرَة، وتَحْقيق «الأَمْن الفِكْـريّ»، والتّعاطي مع ضُغُوطِ المُسْتَقْبَلِ وشُجُونِ الأُمّة وتطلُّعاتِ الوطن وأحْـلامِ الفَرْدِ وقضايـا المُجْتمع دون تَأْسيس «إعْلامٍ تَنْمَوِيٍّ» مُـدْرِكٍ لـ«شُرُوط التّنْمية»، ومُتفاعِلٍ مع مُتَطَلَّبَاتِهَا، ودَافِعٍ نحو سُبُلِهَا؟).

المُشْكِلَـةُ هي أنّه في كُلِّ البدائل المَطْرُوحَةِ أمامنا على السّاحة الإعْلاميّة الشّاسِعَةِ ووسائِلِها المُتَعَدِّدَةِ وإمْكانيّاتِها المُتَنامية، فإنّ أكْثر ما يَصْدِمُنَا هو غِيَابُ «القِيَم التَّنْمَوِيّة» فـي تفاعُلاتِ «الإعْلام العربيّ»، وهو أمْرٌ كفيلٌ بـأنْ يُعَمِّقَ «إشْكَالِيّة التّنْمية»، بَلْ هو- في رأْيِـي- أحَد أهمّ أسْبابها، ممّا يَجْعَـلُ المُجْتمع غريباً على عَصْرِه، وطَارِئاً على مُجْريات زمنـه. وفـي غِيَابِ «موازين التّنْمية» تَنْمُـو متاهات «الفَرَاغ الحياتـيّ»، وتَزْدَهِرُ مساحات الإسْفَـافِ والابْتِذَالِ والتَّطَرُّفِ والإفْرَاطِ والنّرْجسيّةِ والتّفْخيم والتّضْخيم، وما يَنْجُمُ عن كُلِّ ذلك من تَشَنُّجٍ، وتَطَرُّفٍ، وانْكِفَاءٍ، وتَغْريبٍ، وانْبِهَارٍ، واجْتِرَارٍ، وحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُريد أنْ تعيش دَاخِلَ الزَّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

لعلّه من المُقْلِقِ أنْ يَجْتاحنا - إزاء الوَاقِع المعيش - شُعُورٌ بأنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تُـدْرِكْ بعد أنّ «قضيّـة التّنْمية» ليستْ قضيّةً قَابِلَـةً للأخْذِ والعَطَـاءِ، ولا يُمْكِنُ تَرْكُهَا لجلسـاتِ السَّمَـرِ ومُنَاظَرَاتِ الجَـدَلِ؛ فـ«التّنْميةُ» قضيّةُ حياةٍ أو مَـوْتٍ، وإذا كان هذا هو

الحال فإنّ «الإصْلاحَ الإعْلامــيّ» والانْخِرَاطَ في مَنْظُومَةِ «الإعْلام التَّنْمَويّ» من القضايا التي يجبُ أنْ تكون من أبْرز أولويّات «المُجْتمعات العربيّة».

٨-٢-٢- ب) هُمُومُ «الإعْلام التَّنْمَويّ»:

ليس بالإمْــكان الحديث عن «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» دون أنْ يَعْضُدُهَا ويَنْقُلُهَا «إعْلامٌ حيويٌّ» - عبْــر وَسَائِطِه المَقْــرُوءَةِ والمَسْمُوعَةِ والمَرْئِيّةِ - بحيث تَتَحَقَّقُ فيــه مُوَاصَفَاتُ الكَفَاءَةِ والمِهْنِيّــةِ والمَسْؤوليّــةِ والقُــدْرَةِ على التَّأْثيــرِ الوَاسِعِ على مُخْتلف الشَّرائــح الاجْتماعيّة. مــن هذا المُنْطَلَقِ يَبْــرُزُ مُصْطَلَحُ «الإعْلام التَّنْمَويّ» الذي أَصْبَــحَ - بالضّرورة - مُلازِماً لـ«عمليّــة التَّنْمية» وأهْدافها ليكون «الإعْلامُ» فَاعِلاً علــى ساحتها عبْر تَرْويجِ قِيَمِهَا، وبَثِّ أخْلاقيّاتِها، وتَعْميقِ مُقَوِّمَاتِهَا المَعْرفيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة.

إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ أنْ يكون «الإعْلامُ» في «العَصْرِ الحديث» حريصاً على تَحْقيقِ «الرِّبْــحِ المَالــيّ» ليتمكَّنَ من مُوَاصَلَــةِ أداء وظائفِه المُتَعَــدِّدَة، ونَسْتطيــعُ أنْ نَفْهَمَ - إلى حَــدٍّ مــا - تلك النّظرية التــي يَطْرَحُهَا بعضُ الإعْلاميين العرب بصِيَــغٍ مُخْتلفةٍ، ولكنّها - فــي نهاية المطــاف - تعودُ إلــى أصْلِهَا المُتَمَثِّلِ في تلــك المَقُولَةِ الشّعبيّــة: (الجُمْهُور عايــز كِــدَه)؛ ولكنّنــا لا نَسْتطيــعُ أنْ نَفْهَــمَ كيــف يكــون مَقْبُولاً لــدى بعْضِ الإعْلاميين - قبْــل غيرهــم - أنْ يُخْتَــزَلَ دَوْرُهُم في مُجَــرَّدِ تَحْقيقِ الرِّبْــح، أو الاسْتِجَابَــةِ للنَّزْعَاتِ التِّلْقائيّةِ للطّبيعة البشريّة وغَرَائِزِهَا؟.

وعنــد التَّحاور مع الإعْلاميين العرب، قــد تَصْدُمُنَا المَقُولَةُ التــي يُكَرِّسُهَا بعْضهم عنــد التَّحَدُّثِ إليهم عــن مَسْؤوليّاتِهم نحو «التَّنْميــة»، ونَشْرِ «الثَّقافة الجَــادّة»، وتَرْسيخ دعائِــم «مَنْظُومَــةِ مُجْتمع المَعْرفَة»، حيــث يَحْتَجُّون بأنّه لا يُوجَدُ «جُمْهُــورٌ» يَسْتَهْلِكُ هذه «البِضَاعَــة»؛ فــدَوْرُ «الإعْلام» - فــي رأْيهم - هو أنْ يُقَــدِّمَ الخِدْمَــاتِ المَرْغُوبة، ويَطْرَحَ «البِضَاعَــةَ» التي يَطْلُبُهَا المُسْتَهْلِك؛ وفي رأْيهم أنّ على «المُجْتمع» تَهْيئَةَ «الجُمْهُور» الذي يَسْتَهْلِكُ ذلك النَّوْعَ من «البِضَاعَةِ» المُرْتَبِطَةِ بـ«الوَعْي التَّنْمَويّ» و«صِنَاعَةِ المَعْرِفَة» ونَشْرِ

«الثَّقافة العِلْميّة»، ومن ثمّ يقومُ «الإعْلامُ» فيما بعْد - مَشْكُوراً - بتَقْديمِهَا وتوفيرِهَا!. ولا شَكَّ إنّ في مِثْل تلك المَقوْلَة بَخْساً لـ«الإعْلام» وإهْمَالاً لدَوْرِه الرّياديّ في تَشْكيلِ القَنَاعَاتِ وتَأْسيسِ الـرُّؤى وتَطْويرِ الإمْكانـاتِ والالْتِحَام مع قضايا المُجْتمـع؛ فمن الأوصاف التي يُطْلِقُهَـا بعْضهم على «الإعْلام» أنّه «مِرْآةُ المُجْتمع»، ولكن هذا يَخْتزلُ حقائق كثيرةً، من أهمِّهـا أنّ «المِـرْآة» مُحَايدَةٌ تُبيِّـنُ ما أمامهـا دون أنْ تُؤثِّرَ في ما تُبيِّنُـهُ، وأمّا «الإعْلامُ» فالقَائِمُونَ عليه بَشَرٌ، والمُمَوِّلُونَ له بَشرٌ، والمُتَلَقُّونَ له بَشَرٌ، ممّا يَجْعَلُ له تَأْثيراً - سَلْباً أو إيجاباً -، كما أنّه سيكونُ - بطبَائِع البَشَرِ - مَشُوبَاً بتحيُّزاتٍ هنا، ومَصَالِح هناك، وأهْوَاءٍ بيـن ذا وذاك. ولذا فـإنّ لـ«الإعْلام» دَوْراً لا يُسْتَهَانُ به في صِنَاعَةِ ذلك «الجُمْهُورِ» الذي يَسْتَهْلِـكُ «الثّقافة الجَادّة» والـرُّؤى التّنْمَويّة والتّفاعُلاتِ العِلْميّة، ومن المُفْتَرَض أنْ يكون لـ«الإعْلام العربيّ» دَوْرٌ رياديٌّ في كُلِّ تلك المضامير انْطِلاقاً من هَيْمَنَتِهِ شِبْهِ المُطْلَقَةِ في التّأْثيرِ على العامّة ومُعْظَمِ الخاصّة من النّاس.

وأمّا المَقُولَةُ القديمةُ - المُتَجَدِّدَةُ بأنّ «التّاجِرَ» المُسْتَثْمِرَ في «الإعْلام» يَبْحَثُ فقط عـن الرِّبْـحِ المـاديّ، وأنّ «الإداريَّ» القَائِمَ على المُهِمَّةِ مُطَالَبٌ من قِبَـلِ «رِجَالِ الأعْمال» بـأنْ يُحَقِّقَ ذلك الهدف وليَأْتِ بعد ذلك الطُّوفان، فإنّها مَقُولَةٌ أصْبَحَتْ في أعْرَافِ اليوم تَخْضَـعُ لكثيرٍ من المُرَاجعَاتِ والنّقْدِ حيث تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ المَسْؤوليّة الاجْتماعيّة» للقطاع الخاصّ لِيَنْمُو ويَسْتَقِرّ ويُصْبِـحَ أكْثر اتِّساعاً وانْفتاحاً. ولا شَكّ فـي أنّ على «الإعْلام» - بوسائِلـه المُخْتلفـة - أنْ يَحْمِلَ القَدْرَ الأكْبر من ذلك «الهَـمّ الاجْتماعيّ»؛ فـ«الإعْلامُ» - وفْـق نظريّـات الإعْلاميين أنْفسهم الذين سَكُّـوا مُصْطلح «الإعْـلام التّنْمَويّ»- من أبْرز الأدوات القَـادرَةِ على إحْدَاثِ «التَّغيير الاجْتماعيّ» الذي يَخْدِمُ «التّنْمية»، ويُعَزِّزُ الانْتماء، ويُكَرِّسُ الهُويّة، ويُؤسِّسُ المعايير التي تَحْكُمُ السُّلُوكيّات والتّوجُّهات والمُمَارَسَات.

بطبيعـة الحال، ليس «الإعْلامُ التّنْمَويُّ» جَافّاً صَارِماً مُتَقَوْقِعاً حول «الفِكْرِ العِلْميّ»، أو التّحْليل التّنْمَويّ، أو التّأْصيل المَعْرفيّ، أو الأُطُرِ التّجْريبيّة، بَلْ تَرْكُضُ - أيضاً - قِيَمُهُ علـى مجـالاتِ التّرْفيه والتّسْليـة والرّياضة، وتَرْبِضُ مُعْطَيَاتُهُ في عَوالِـم الشِّعْرِ والأدب والسِّجَالاتِ الفِكْريّة، وتَرْقُصُ أهْدَافُهُ على حُرُوفِ الرّوايات والمقالات، وتَلْتَحِمُ مَضَامِينُهُ

مع التّفاعُلاتِ الإنْسانيّة بمُخْتلـف تخصُّصاتِها، وتَتَسَلَّلُ رُوحُهُ إلى الفعّاليّاتِ الاجْتماعيّة بمُخْتلـف اهْتماماتِها؛ ولكنّ المَطْلُـوبَ وَضْعُ «الإسْتراتيجيّة المُنَاسِبَـة»، وتوظيفُ العُقُولِ القَادِرَة، وتَطْويعُ المهارات الكفؤة.

وهكـذا، في ظِلّ «تحدّيات الألْفيّة الثّالثة» و«ثقافـة العَوْلَمَة»، تَبْرُزُ مضامين جديدةٌ قـد يُرَحِّـبُ بها بعْضهم، وقـد يُحَذِّرُ منها آخَـرون، وقد تتقاعسُ فِئةٌ عـن دَعْمِهَا؛ لأنّها لا تَعْرِفُ كيف تتعاملُ معها أو تُعَبِّرُ عنها، فـ«النَّاسُ أعْداءُ ما جَهِلُوا»، إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نُدْرِكَ أنّ هنـاك مَوْجَةً ثقافيّةً وإعْلاميّةً ومُجْتمعيّةً تتنامى مع نُموِّ الشّرائحِ الاجْتماعيّة المُخْتلفة التي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنية» بحُكْمِ المِهْنَةِ أو التّخصُّصِ أو الاهْتمام الفِكْريّ والثّقافيّ والاجْتماعـيّ بأبْعَـادِ «ظَاهِـرَةِ العلوم والتّقْنيـة» وآثارِهـا؛ وبالتّالي يجبُ توفيـرُ القَنَوَاتِ والوسائـلِ والأنْمَاطِ التـي تَسْتطيعُ أنْ تَسْتَوْعِبَ تلك المَوْجَـة، وتُوَظِّفَهَا، وتَرْتَقِيَ بها. ولذا فـإنّ السُّؤالَ المَطْرُوحَ بإلْحَاحٍ علـى «الضَّمير العربيّ» هو: (ألم يَئِـن الأوان للإعْلاميّين والمُمَوِّليـنَ العرب أنْ يَسْتَشْعِرُوا مَسْؤوليـة «صِنَاعَةِ المُسْتَقْبَلِ» فيَنْفَكُّوا من قَوْقَعَةِ الثَّقافة اللفْظيّة وضجيـجِ الانْفعالات وبرامِجِ الإثارة الحِسِّيّةِ وساحـاتِ «الوَغَى الكُرَويّة»، ويُطِلُّوا على «الثَّقافة العِلْميّة» بآفاقِها الرّحْبَة، ويَفْتَحُوا نَوافِذَ جديدةً أمام «العَقْلِ العربيّ» ليَنْطَلِقَ – بتَوَاؤُمٍ وانْسِجَامٍ – مع «رُوحِ العَصْرِ» وتطوُّراتِ «الزَّمَنِ» وتحدّياتِه؟).

٨-٢-٢-ج) المَوقِعُ الرّياديّ لـ«الإعْلام العِلْميّ»:

إنّ أبْـرز ملامح «الإعْـلام التّنْمَويّ» هو بُـرُوزُ «الإعْلام المُتَخَصِّـص»، ونُموُّهُ أفقيّاً ورأْسيّـاً، فبـرزتْ برامِجُ «الإعْلام الاقْتصـاديّ» و«الإعْلام الرّياضـيّ» وغيرهما، وأَصْبَحَ «الإعْـلامُ المُتَخَصِّصُ» يَتَبَـوَّأُ مكاناً حيويّاً فـي «المَنْظُومَةِ الإعْلاميّـة» في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» التي تَسْتطيعُ أنْ تقيسَ مدى رُقِيِّهَا بما حَقَّقَتْهُ من مُسْتوىً في مضامير «الإعْلام المُتَخَصِّـص» المُخْتلفة، وهي تتفاعلُ – يوميّاً – مع خلايا المُجْتمع، وتَتَغَلْغَلُ في أنْسجتِه، وتصـوغُ توجُّهاتِـه، وتُنَظِّمُ حياته، وتُرسِـي قِيَمَه. في قَلْبِ «الإعْـلام المُتَخَصِّص» يَرْبِضُ «الإعْلامُ العِلْميُّ» بكُلِّ تفرُّعاتِه وتشعُّباتِه، ومن المُهِمّ أنْ نَضَعَ هنا تَعْريفاً إجْرائيّاً وَاضِحاً

لمَاهِيّةِ «الإعْلام العِلْمـيّ»، نَسْتَخْلِصُهُ من المُمَارَسَاتِ المَطْلُوبَةِ منه، لنجد أنّه: (الإعْلام المَعْنيّ أساسـاً بمُعَالَجَةِ الأحْداث والتّطوُّرات التّنْمَويّة، والهَادِفِ إلى التّأْثيرِ في مسارات التّطـوُّر والتّغْيير عبْر التّوظيف المَاهِـر للوسائل الإعْلاميّة المُتَاحَـةِ وتقْنياتها المُتَطَوِّرةِ للإسْهَـامِ الفعَّالِ في اسْتِنْبَـاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي المُجْتمع، وتَنْميةِ «الحِسّ العِلْميّ» لدى الشَّرائح المُجْتمعيّــة المُخْتلفة، وتَبْسيطِ القضايا والمفاهيم العِلْميّة، ورَبْطِ «العِلْـم» بأَوْجُهِ الحياة وحركة المُجْتمـع وطرائِق التّفْكير، وجَعْلِ «الثَّقافـة العِلْميّة» جُزْءاً عُضْويّـاً من «الثَّقافـة السَّائِدَةِ»، وتَهْيئَةِ «المُنَـاخ العامّ» القَادرِ علـى اسْتيعاب المُعْطيات العِلْميّـة والوفاءِ بشُرُوطِهَا وإِعْـدَادِ المُواطِن للتّعاملِ بحماسٍ وأُلْفَةٍ وثِقَةٍ مع «رُوحِ العصْرِ» ومُتَطلَّبَاتِ التّقْنية، وتوفيرِ البِيئة الحَاضِنَةِ للإبْداع العِلْميّ والتّفوّق التّقنيّ).

إنّ المُعَالَجَةَ الصّحيحةَ لـ«إشْكَاليّةِ التّنْمية» لا يُمْكِنُ لها أنْ تَغُضَّ الطَّرْفَ عن الكَارِثَةِ المُتَفَاقِمَةِ المُتَجَلِّيَةِ في اكْتِظَاظِ «الفضاء الإعْلاميّ العربيّ» بكُلِّ حَابِلٍ ونَابِلٍ، ولكن لا نكادُ نَلْمَسُ بين الحَابِلِ والنَّابِلِ «إعْلاماً عِلْميّاً» ذا تَأْثير. وهكذا نجدُ أنّه في الوَقْت الذي تتوالدُ فيــه قَنَوَاتٌ فضائيّةٌ وإذاعيّةٌ في «العَالَم الغَرْبيّ»، وتَنْمُو عندهم مجلاّتٌ وصُحُفٌ يَنْحَصِرُ كُلُّ اهْتمامِهـا في تَبْسيطِ العلـوم، ونَشْرِ المعْرِفَة التّقنيّة، وجَذْبِ مُجْتمعاتِهم إلى ساحات العلـوم والابْتكار، وتوسيــعِ أُطُرِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وتفاعُلاتِه مــع «القَاعِدَةِ المُجْتمعيّة»، فإنّ «الفضــاء العربيّ» يَضِجُّ بالمزيد من صِياحِ الدِّيكَة، والمُمَاحَكَاتِ اللفْظيّة، وقَنَوَاتِ الإثارة الحِسِّيّـة. وأمّا المُؤسَّسَاتُ الصّحفيّةُ، فقد انْصَرفَتْ إلــى ما اعْتَقَدَتْ أنّه يَحْصُدُ الأرْباح حيـث تَنْمُو «الصِّحَافَةُ التَّقْليديّةُ» التي تُكَرِّرُ ذاتها، وتَسْتَنْسِخُ تجارِبها، دون العِنَايَةِ بذلك الجديـد التّنْمَويّ، القَادرِ على الإسْهَامِ في إحْدَاثِ «النَّقْلَة النّوْعيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّــة»، الذي يَقَعُ الآن - إلى حَدٍّ كبيرٍ - في خَانَــةِ ذلك الإعْلامِ المَجْهُولِ والمَنْبُوذِ في «العَالَمِ العربيّ»؛ ألا وهو «الإعْلامُ العِلْميّ»!.

الطَّريــفُ المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنّ قضيّةَ «الإعْلام العِلْميّ»، وبشَكْلٍ أعمّ قضيّة «الثَّقافة العِلْميّــة»، تُمَثِّـلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في كُلِّ مــا تَصْبُو إليه الأُمّةُ من طُمُوحَـاتٍ، وما يُنَادِي به السّاسَةُ والقَادَةُ من تطلُّعاتٍ، وما يتنادى إليه رِجَالُ التّرْبية والتّعْليم من خُطَطٍ، وما يتحاورُ

حوله جَهَابِذَةُ الثّقافة والفِكْرِ والوَعْظِ من مُشْكلات. إنّ قضايا «التّنْمية» والتّطوير والإنْتاج والمَنَعَـةِ وإرْسَـاءِ دعائِـم «مُجْتمع المَعْرِفَة» تَلْتَـفُّ - كُلُّهَا - بإحْكامٍ حـول قضيّة «العلوم والتّقْنيــة»، ومدى القُدْرَةِ على تَرْسيخ أدواتِها وفِكْرِهَا ومعانيها ومُقْتَضياتِها في المُجْتمع؛ ودون ثقافةٍ قَادِرَةٍ على تَهْيِئَة تلك البِيئة، ودون إعْلام يَحْمِلُ تلك «الثَّقافة» ويُشِيعُ مُعْطياتِها ويُبْـرِزُ دَلالاتِها، فإنّ كُلَّ تلـك الجُهُودِ تَبْقَى في مَهَبِّ الرِّيح. تلـك هي الحقيقة الجوهريّة التـي لم تَسْتَطِعْ «الثَّقافةُ العربيّةُ» أنْ تَسْتَوْعِبَهَا بعْـد، وتلك هي «الإشْكَالِيّةُ الأساسُ» التي فَشِلَ «الإعْلام العربيّ» في التّعامُلِ معها؛ والطَّريفُ أنّ السّاحةَ تَعِجُّ بالإعْلاميين من شتّى الخَلْفيّـات والاهْتمامات، وعلـى مُخْتلف مُسْتويات صُنْع القَـرَارِ والأداء الإعْلاميّ، وكُلُّهم - دون اسْتِثْنَـاءٍ - يُقِـرُّونَ بذلـك العَجْزِ، ويُدْرِكُـونَ حَجْمَ الخَسَارَةِ الوطنيّـةِ النّاتِجَةِ عن إهْمَالِ «الفِكْرِ العِلْميّ»؛ وأمّا أدبيّاتُهم في الحماس لـ«الحركة العِلْميّة» و«نَقْلِ التّقْنية» فهي كثيـرةٌ، ولكنّهم كُلُّهم - دون اسْتِثْنَاءٍ - لديهم ما يَكْفِي مـن الأعْذارِ الحقيقيّة والمُبَرِّرَاتِ المُتَوَهَّمَةِ لفشلهم الذَّريعِ في المُسَاهَمَةِ في التّفْعيلِ الجَادِّ لرُؤى «الإعْلام العِلْميّ» والتّعامُلِ مع شُرُوطِه!.

علـى مدى قُرابَةِ ثلاثة عُقُودٍ طَرَحْتُ قضايا «الثَّقافة العِلْميّة» و«الإعْلام العِلْميّ» مع إعْلاميّيــن في وطني - أكاديميِّين ومِهنيِّين في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ - لأتَلَمَّسَ معهم طبيعـةَ الإشْكال، وأَسْتفيدَ من تَجْرِبَتِهِمْ الإعْلاميّة فـي تَشْخيصِ حقيقة المُعَوِّقَاتِ وسُبُلِ التَّغَلُّـبِ عليها ومُبَادَرَاتِ العمل اللّازمــة، واتّفَقْتُ معهم في أنّ عَدَداً من المُعَوِّقَاتِ يَرْتَبِطُ بطبيعــةِ «التَّرْكيبة الثَّقافيّة» السّائِدَةِ في المُجْتمع، وحَدَاثَةِ «التَّجْرِبَةِ العِلْميّة والتّقْنيّة» في حيــاة النّاس، وصُعُوبَةِ المُعْطياتِ الفِكْريّة والعِلْميّة والتّقنيّة وصَرَامَتِهَا، ولكنّي اكْتَشَفْتُ - أيضاً - أنّ العَقَبَةَ الأولى الكَأْدَاءَ هي في أنْ يَتَغَلَّبَ الإعْلاميون أنْفسهم على تلك الهَوَاجِسِ والمَخَاوِفِ، ويتجاوزوا سَيْطَرَةَ «الثَّقافة الأدبيّة» المُتَمَكِّنَة من عُقُولِهِمْ ووِجْدَانِهِمْ، ويتأَقْلَمُوا مع مُتَطَلَّبَاتِ «الفِكْر العِلْميّ»، ويُقْبِلُوا على تَأْسيسِه وتَفْعيلِه دون تَهَيُّبٍ أو حساسيّة.

أَدْري أنّ (النَّاس أعْداء ما جَهِلوا)، ولكن عندما يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بقضايا مصيريّة، فإنّ كُلّ الجُهُـودِ يَنْبَغِـي أنْ تُبْذَلَ للتّغلُّبِ على تلك العُقَدِ النّفْسيّـة والعَقَبَاتِ المِهْنيّة والظُّرُوفِ

المُجْتمعيّـةِ، وأنْ تَتَّجِهَ لفَتْحِ المجـال أمام قُدْرَاتٍ جديدةٍ قَادِرَةٍ على أنْ تتعامل مع قضايا القَـرْنِ الواحد والعشرين، وأنْ تَسْعَى إلى إعْدَادِ كفـاءاتٍ وَاعِيةٍ، وتَهْيئتِها لخَوْضِ «عَوالِمِ الإعْـلام العِلْميّ»، والتّعامُلِ معها بحِرَفِيّةٍ وجِدِّيَّـةٍ؛ وأمّا الوَاقِعُ الحزينُ فيُؤكِّدُ أنّنا سنَتْعَبُ في البَحْثِ عن تلـك المُؤَسَّسَةِ الإعْلاميّة التي يَتَوَافَرُ لها قِسْمٌ جَادٌّ لـ«الصِّحَافَة العِلْميّة»، وسيعـودُ البَصَـرُ خَاسِئاً وهـو حسير. ولعـلّ الزَّمن كفيـلٌ بإقْحَـام الإعْلاميّين وغيرهم فـي «بَوْتَقَـةِ القَرْنِ الواحـد والعشرين»، ولكن هـل لدينا ذلك الوَقْت في زمـنٍ نَخْسَرُ فيه يوميّـاً نتيجةً لتفـوُّقِ الآخَرين المُتَسَارِع؟. وهكذا يَبْقَى سُؤالُ «الإعْـلام العِلْميّ» حَائِراً مع الإعْلاميّيـن وبينهـم!؛ وبالرّغم من أنّنـي أُدْرِكُ أنّ وِزْرَ قضيّة «الثَّقافـة العِلْميّة» تتحمَّلُهُ أطْـرافٌ عديدةٌ في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ، إلاّ أنّنـا نَتَحَدَّثُ هنا عن «قضيّةٍ إعْلاميّةٍ» بامْتيازٍ، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يَحْمِلَ الإعْلاميّون شُعْلَةَ الرِّيادَةِ فيها!.

٨-٢-٢- د) التّلاؤمُ بين «التَّعليم» و«الإعْلام»:

من الطَّريفِ أنْ نَرْصُدَ – أحْياناً – حالةً من «تَبَادُلِ اللّوم» بين «أَهْلِ الإعْلام» و«أَهْلِ التَّعْليـم»؛ فيلومُ الإعْلاميّـون «التَّعْليم» لتَقْصِيرِهِ في تَهْيئَةِ «الجُمْهُـور» للتّفاعُلِ مع قضايا أكْثَـر جِدِّيّةً وأشدَّ الْتِصاقاً بتحدّيات «التّنْمية»، ويُسَـارِعُ التّرْبويّون للوم «الإعْلام» لتأْثيرِهِ الكَاسِـحِ، حيث يرون أنّه يَهْدِمُ مـا يَبْنُونَ، ويُقَوِّضُ ما يُشَيِّـدُونَ. وأمّا الحقيقةُ المُرَّةُ فهي أنّ الطَّرَفَيْـنِ مَلُوْمَـان، وأنّ كِلَيهما مُقَصِّـرٌ؛ فـ«الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» تَحْتَـاجُ إلى تعاضُدِهِما، وتكامُلِهمـا، وتفاعُلِهما؛ لأنّهمـا المُحَرِّكَانِ الرّئيسانِ لآليّات «الثَّقافـة» وبرامج «التّنْمية»، وتَقْصيـرُ أيٍّ منهما في هذا المجال يُعَرْقِلُ حركة الآخَر، ويُبْطِئُ أداءه، ويُضْعِفُ فَاعِليّته. إذا كانـتْ المضاميـنُ فـي «التَّعْليم» مُهمّـةً لصِناعة المُواطِـن القَادِرِ علـى الإسْهَام في «التّنْميـة»، فـإنّ «الإعْـلامَ» يَشْتَرِكُ في تلك الخصائِـص، فهو ليس مُجَـرَّدَ وسائل فَنِّيّةٍ، وأدواتٍ عمليّةٍ، واعْتباراتٍ مِهْنيّةٍ، ومَواهِب ذاتيّةٍ، ومهاراتٍ شَخْصِيّةٍ؛ فكُلُّ ذلك خَواءٌ إذا لم يَحْمِلْ مَضْموناً ولم يَخْدِمْ هدفاً، وبطبيعة الحال، قد يكونُ المَضْمونُ غَثّاً رَثّاً، وقد يكونُ الهـدف سقيماً مُتَهَالِكاً. ولذا فإنّ «الإعْلام» الذي يتبنَّـى نظريّة «الجُمْهُور عايز كِدَه» هو

«إعْلامٌ مُفْلِسٌ» بكُلِّ المقاييس، إضافةً إلى أنّه «إعْلامٌ جاهِلٌ» بوَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» وحاجاتها؛ فلقد بَرَزَتْ شرائحُ مُتناميةٌ ذات توجُّهاتٍ عِلْميّةٍ، ومهاراتٍ تقنيّةٍ، واهْتماماتٍ مَعْرفيّةٍ، وهي من ضمْن «الجُمْهُور» الذي يَنْبَغي التّفاعُلُ مع مُمَارَسَاتِه واهْتماماته وقضاياه. وأمّا الحقيقةُ الثّابتةُ، فهي أنّ «الإعْلام» الذي لا يَسْتطيعُ أنْ يَسْتَوْعِبَ دَوْرَهُ الرّياديّ في صِناعَةِ «مُسْتقبَلِ الأُمّة»، ويَفْشَلَ في الارْتِقَاءِ بالمَدارِكِ والمعارِف، ويُصِرَّ على مُواصَلَةِ جُهُودِهِ في تَكْرِيسِ إثاراتٍ حِسّيَّةٍ، أو توجُّهاتٍ مَشْبُوهةٍ، أو انْفعالاتٍ آنيّةٍ، أو تَسْطيحٍ ثقافيٍّ؛ فإنّه يَحْرِمُ مُجْتمعه من تَأْسيس «البِنْيَة التَّحْتيّة» اللاّزمة لاسْتيعاب تغيُّراتِ «العَصْرِ» ومُعْطياته، ويَمْنَعُ شبابه من الانْطلاق في آفاق «الفِكْر العِلْميّ» الرّحْبة، والتّطْوير الذّاتيّ، والتّأْهيل التّنْمَويّ، ليَجْثُمَ على ساحة «الإعْلام العربيّ» ذلك السُّؤال القَاسِي الذي طَرَحَهُ محمد الرميحي: (هل يُقَدِّمُ لنا إعْلامُنا «تَنْمِيَةً» أمْ «تَعْمِيَة»؟)[١٠٤].

إنّ توظيفَ «وسائل الإعْلام» في بَثِّ «الثّقافة العِلْميّة»، وتَرْويجِ قِيَمِ الإنْتاج، أَضْحَى عُنْصُراً مُهِمّاً في اسْتراتيجيّات كثيرٍ من الدُّول؛ فتَكْريسُ «وسائِل الإعْلام» لجُزْءٍ من طاقاتِها وجُهُودِهَا لقضايا «العلوم والتّقْنية»، والاهْتمامُ بـ«الإعْلام العِلْميّ»، وتَبْسيطُ العلوم وتوفيرُها لأوسع القِطَاعَاتِ بين «الجُمْهور»؛ كُلُّها تَعْمَلُ على تَأْسيس «ثقافةٍ جديدةٍ» في المُجْتمع، وتُسْهِمُ في تَشْكيلِ «العَقْلِ المُعَاصِرِ»، وتَبْنِي - وبشَكْلٍ تَدْريجيٍّ - نَمَطاً تراكُميّاً وسُلُوكيّاتٍ جديدةٍ ومُمَارَسَاتٍ تَتَّفِقُ مع مُقْتضياتِ «التّنْمية» وشُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، كما أنّ لها «دَوْراً حيويّاً» في رأْيِ فلاح سعيد جبر لا يَكْمُنُ فقط: (في تَطْوير التِّكنولوجيا المحليّة، ولكن على المدى الطويل في تَحْديد مُواصَفَاتِ التِّكنولوجيا المَرْغُوبِ في اسْتيرادها وكيفيّةِ اسْتيعابِها وتَطْويعِها وتَطْويرِها)[٧٥].

٨-٢- ٣) «التّعْريبُ» و«النّشْرُ العِلْميّ»:

في خِضَمِّ الانْتِهاكَاتِ اللّغويّةِ والانْسِياقِ الأعْمَى إلى لُغَاتٍ أجنبيّةٍ، سَواءً على صعيد التّعْليم أو التّعامُل، وفي إطَارِ الإهْمالِ الذي يَبْدُو مَقْصُوداً في بعْض الحالات، فإنّ من حَقِّ «لُغَةِ الضّاد» أنْ تَصْرُخَ بأعْلى صوتِها وتَسْتَغِيث!. إنّ السّاحةَ - بأشْكالِها الإعْلاميّة

والتّعْليميّـة والحياتيّة والعمليّة - تَضِجُّ بالهَجَمَاتِ على «اللّغَةِ الأُمّ»، حيث انْتَشَرَ اسْتِخْدَامُ اللّهَجَـاتِ العاميّـة، وراحـتْ وَسَائِلُ الإعْـلام، وبالذّات القَنَـواتُ الفضائيّـة، تتسابقُ إلى إضْعَـافِ «اللّغة العربيّـة» واسْتِخْدَام اللّهَجَاتِ المحليّـة، وأَصْبَحَ التَّطـوُّرُ مُقْتَرِناً باللّغات الأجنبيّـة فـراح بعْضهم يتسابـقُ إلى التّفَاخـرِ بالتّحدُّث بهـا، والتّباهـي بمُصْطلحاتِها ومُفْرداتِهـا، وكأنّ «اللّغـة العربيّة» - بتُرَاثِهَا الضَّخْـمِ ومُفْرداتِها المُتَنَوِّعَـةِ ومُترادِفاتِها المُتَعَـدِّدَةِ - عَجَـزَتْ عن اسْتيعاب تلـك المعاني، أو التّعْبير عن تلـك الأفْكار، أو مُسايرة «شُرُوط التَّطَوُّر»!.

إنّ قضيّـةَ «تَعْريـب العلوم» - تَأْليفـاً وتَرْجَمَةً -، كمُعْظم قضايانـا في «المُجْتمعات العربيّـة»، هي قضيّةٌ قديمةٌ جديـدةٌ، وهي قضيّةٌ تَفْرِضُ نفْسها باسْتمـرارٍ وإلْحَاحٍ؛ لأنّها مُرْتبطةٌ بأبْرز التّحدّيات التـي تُجَابهُ الأُمّةُ العربيّةُ، وهو «التَّحَدِّي العِلْميّ- التّقنيّ»؛ ولذا نجـد أنّ قضيّـة «تَعْريـب العلوم» قد بَـرَزَتْ منذ اللحْظة التـي شَعَرَتْ فيهـا «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بضَرورة الأَخْذِ بأسْبَابِ القُوّةِ والنّهْضَةِ المُتَمَثِّلَةِ في «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة». لقـد كان السُّـؤالُ، وما زال، هو: (هل تَسْتطيـعُ الأُمّةُ أنْ تَسْتَوْعِبَ «العلـوم الحديثة»، وأنْ تُوَطِّنَ «التّقْنية»، وأنْ تتفاعلَ مع مُقَوِّمَاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وأنْ تُبْدِعَ في رِحَابِهَا، إذا لم تكنْ لُغَتُهَا عُنْصُراً رئيساً وجوهريّاً في بَوْتَقَةِ التّفاعُلِ والتّلاقُحِ والإبْدَاع؟).

لقـد شَغَلَ هـذا السُّؤالُ بال أَصْحَـابِ القَـرَار والنّهْضَويّين والتّنْمَويّيـن والتّرْبويّين والمُفكّريـن من مُخْتلف المَشَـارِبِ والاهْتمامات، وانْقَسَمَ فيه سَـوَادُ النّاس إلى فريقَيْن: أوّلُهمـا يرى أنّ الأولويّة هي لصَهْرِ «العِلْـم والتّقْنية» في البَوْتَقَةِ الثّقافيّةِ والفِكْريّة للأُمّة، ولأنّ «اللّغة» هـي «وِعَاءُ الفِكْر»، و«أداةُ التّواصُل والتّفاعُل»، فإنّه لا يُمْكِنُ تَحْقيق «النَّهْضَة العِلْميّـة» دون جَعْـلِ «اللّغـة» وسيلـة التّعَلُّـمِ والتّخَاطُـبِ والتّواصُلِ والتّفْكيـرِ في مجالات «العِلْـم والتّقْنيـة»؛ ولذا أَصَرّ هذا الفريق على أهميّة أنْ تجـد «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» طريقها إلى ذلك «الوِعَاءِ الفِكْريّ - اللّغويّ - الثّقافيّ». ويَخْلُصُ أَصْحاب هذا الرّأي إلى أنّ اسْتِخْـدَامَ لُغَاتٍ أَجْنبيّةٍ فـي تَدْريسِ «العلوم والتّقْنية»، ومُنَاقَشَـةِ الأفْكار والنّظريّات والطُّرُوحـات العِلْميّـة، هو- فـي الوَاقِع - تَفْريغٌ لـ«اللّغـة العربيّة» مـن «المُحْتَوى العِلْميّ

والمَعْرفـيّ» المُعَاصِـر؛ ممّـا يَجْعَلُها تَنْزَلِـقُ - تدريجيّـاً -، لِتُصْبِحَ فقط «لُغَـةَ التُّرَاثِ»، وليستْ لُغَـةً مُنْتِجَةً لـ«العِلْمِ الحديث»، ومُتفاعِلَةً مع مُعْطيـاتِ «العَصْرِ» ومُشْكلاتِه. ووفْقَ هـذا الـرّأي، يُصْبِحُ «التَّحَـدِّي المَعْرفـيّ المُعَاصِر» الـذي يُجَابِهُ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» عِبَارَةً عن تَحَدِّيَيْن، وكأنّ تَحَدِّياً وَاحِداً لا يَكْفينا!؛ فهناك «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بكُلِّ تخصُّصاتِـه ونُموِّه المُتَسَـارِعِ المُذْهِلِ، وهنـاك «التَّحَدِّي اللّغَوِيّ» بـكُلِّ شُرُوطِهِ ومُعَوِّقَاتِه. وأمّـا الفريقُ الثّاني فيَبْدُو أنّه على عَجَلَةٍ من أَمْرِه، فهو يرى أنّ الاهْتمام بدَمْجِ «اللّغَة» في التّفاعُلِ العِلْميّ «تَرَفٌ ذِهْنِيٌّ» لا يُسْعِفُنَا الوَقْتُ للسَّمَاحِ به، ويرى هذا الفريق - في أحْسنِ الأحْـوال - تَأْجيـل تلك «المُهِمَّـةِ اللّغَوِيّة» إلـى أنْ يَتِمّ اكْتسابُ «العِلْـم والتّقْنية»، وبعْد أنْ يُصْبِحَ للأُمّة العربيّة حُضُورٌ قويٌّ ومُؤثِّرٌ على السّاحة العِلْميّة.

عبْـر التَّأمُّلِ المُتَأنِّـي لمَوقِفَيْ الفريقَيْن يَتَّضِحُ أنّ الفريق الثّانـي يُهْمِلُ - في عَجَلَتِهِ لتَحْقيـقِ «التّنْميـة» وهَرْوَلَتِهِ نحـو تَكْثيفِ «الحركـة العِلْميّة» في «المُجْتمعـات العربيّة» - الحقيقـةَ الثّابِتَةَ عـن دَوْرِ «اللّغَةِ» في حياة الأُمّـة؛ فهي «وِعَاءُ الفِكْرِ» القَـادِرِ على تَشْكيلِ المفاهيـم وبَلْوَرَةِ التّفاعُلاتِ وتَعْميقِ الرُّؤى؛ فـوفْق نبيـل علي[٩٩]، فإنّ: (الثّقافة مِحْوَرُهَا اللّغَـة)، وبالتّالي هـي (تَقَعُ في قَلْـبِ مَنْظُومَةِ الثّقافة)، وكما يقـولُ محيي الدين صابر، فـإنّ: (اللّغَـة هي مَنَـاطُ الثّقافـة فـي كُلِّ معانيها، فهي التـي تُحِيـلُ التَّصَوُّرَ إلـى فِكْرٍ، تَعْبيـراً عنـه، وتُحِيلُ الفِكْرَ إلى عمـلٍ، تَفْسيراً له)[١٨]. مـن المُهِـمّ - إذاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّـة ليستْ سَهْلَةً، وهي أبْعَـدُ ما تكون عن تلك الحُلُولِ السّريعـة المُرْتَجَلَة التي نُهْرَعُ إليهـا عادةً؛ فالإشْكَاليّةُ تَكْمُنُ في طبيعة العَلاقَةِ بيـن «العِلْم» و«اللّغَة» وما يُحِيطُ بها من تداخُـلاتٍ فِكْريّةٍ، وتفاعُلاتٍ ثقافيّةٍ، وتحدّياتٍ حضارية. إنّ القضيّة ليستْ قضيّة تَعْريبِ مُصْطلحاتٍ، أو تَرْجَمَةِ بُحُوثٍ، أو تَأْليفِ مَرَاجِع، وإنْ كان كُلُّ ذلك مُسَانِداً ومُهِمّاً، ولكنّها أَعْمَقُ بكثيرٍ وأشدّ تَعْقيداً، فهي قضيّةٌ تَرْتَبِطُ بوجود «العِلْم» في «التّرْكيبة الثّقافيّة» وجوداً طبيعيّـاً ومُتَنَاغِماً ومُنْسَجِماً مع «رُوح العَصْر»، ومُتَوَافِقاً مع «حَرَاكِ المُجْتمع» وتفاعُلاتِه، وهـذا «الشَّرْطُ الثّقافيّ - المُجْتمعيّ» لن يَتَحَقّـقَ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «اللّغة العربيّة» حَاضِنَةً لـ«العِلْم»، ومُوَاكِبَةً له بطلاقةٍ وتِلْقائيّةٍ وحماس.

فـي خِضَمِّ الانْدفاع نحـو «العَوْلَمَةِ»، وهُمُـوم «التَّنْمية»، وتحدّيـاتِ «العَصْر»، تغيبُ الجِدِّيَّـةُ في تعامُلنـا مع قضايا «اللّغة العربيّـة» وهُمُومِها، سَواءً كان ذلـك على الأَصْعِدَةِ التّعْليميّـة أو الإعْلاميّة أو الثّقافيّة، وننسى، أو نتناسى، أنّ كثيراً من تلك الإشْكالات تجد جُذُورَهَـا في إغْفالِنا للـدَّوْرِ الجوهريّ الذي تُؤدِّيـه «اللّغَةُ» في حياة الأُمَـم؛ فالتّفاعُلاتُ المُجْتمعيّـة، والإرْثُ القوميّ، والفِكْرُ المُتَجَذِّرُ في كِيـان الأمّة، وركائِزُ «مُجْتمع المَعْرفة»؛ كُلُّهـا تَلْتَفُّ حول قضيّـة «اللّغَة الأُمّ»، فهي التي تَسْتطيعُ أنْ تَلُـمَّ الشَّمْلَ، وتُؤصِّلَ الحماس، وتُغَذّي الفِكْرَ، وتُؤسِّسَ الإبْدَاعَ، وتَحْمِي الهُوِيّةَ؛ وكُلُّها شُرُوطٌ لازِمةٌ لنَهْضَةٍ حقيقيّة.

٨-٢-٣- أ) «الشَّرْط اللّغَوِيّ» لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

مـن المُهِمّ أنْ نُشيـرَ هنا إلى أنّ إحْـدى أهمّ المُشْكلات التـي تُعَانِي منها «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»، هي غُرْبَتُهَا عـن «الثَّقافة السَّائِدَة»، وعدم قُدْرَتِهَا على التّغَلْغُلِ في نسيج البِيئة وخلايا «الفِكْرِ الجَمْعيّ» للأُمّة، فتظلُّ عُضْواً مَرْفُوضاً مـن الجَسَد، وهَامِشيّاً فـي التّأْثير. ولذا فـإنّ «الفَجْوَةَ» بين «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة» وبيـن «المُجْتمعات العربيّة» هي في ازْديادٍ بسبب غِيَـابِ دَوْرِ «اللّغَة» التي هي أساسٌ لازِمٌ لنَشْرِ «ثقافـة العِلْم»، وتزْدادُ هذه «الفَجْوَةُ» اتِّساعاً مع نُموّ التّقْنيات الحديثة وتَعْقيداتها، وتَكْبُرُ مـع اسْتِخْدامات «الإنْترنت» وتَطْبيقات «تَقْنية المَعْلومـات». ومن المُؤسِفِ أنْ نرى أنّ أصْحـاب التّخصُّصـات العِلْميّـة والتّطْبيقيّـة هم الأكْثر بُعْـداً عن لُغَتِهِـمْ الفُصْحَى؛ لأنّهـم يَعْتَقِـدُونَ أنّ هـذا الموضوع لا يَقَعُ ضِمْـن اخْتِصاصاتِهم، ولا يَنْضَـوِي تحت إطَارِ مَسْؤولياتِهم، ولا يَتَعَلَّقُ بعلومِهم، وهم بذلك يَنْسونَ تماماً أنّ واجبهم الأوّل هو غَرْسُ تلك العلـوم في «اللّغَـة الأُمّ»، لتُصْبِحَ أكْثر اتِّسَاعاً في اسْتيعابِها للكفـاءات، وأعْمق شُمُولاً في احْتِضانِها للمَوَاهِبِ، وأكْثر قُدْرَةً على التّغَلْغُلِ في «نسيج المُجْتمع» وخلاياه الفَاعِلَة.

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعاً نُخْبَوِيّاً» تَمْتَلِكُ فيه النُّخْبَةُ أدواتِ «العَصْرِ» وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخاطِبُهُ بلُغَةٍ مُهَيْمِنَةٍ عَالَمِيّةٍ – أيّاً كانتْ هذه اللّغَة –، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ على أنْ يتفاعل – بلُغَتِهِ وثقافَتِهِ وهُوِيّتِه – مع مُعْطيات «العَصْرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة»،

بحيث تُشارِكُ جميع الشَّرَائِح ومُخْتلف الفِئَاتِ في اسْتيعابِ «المَعْرِفَة» وإنْتاجِها؛ ممّا يَضَعُ «شَرْطـاً لُغَويّاً» على «عمليّة التَّحَـوُّلِ» إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة». إنّ «اللّغَـةَ الأُمّ» هي الوسيطُ الوحيـدُ القادِرُ على تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» والنُّهُوضِ بمُكَوِّنَاتِه المُخْتلفة[٧٨،٩٦]، وهذا مـا يُؤَكِّـدُه «التَّقْريـرُ العَالَميّ لليونسكـو»[٨٣] - الصّادر في عـام ٢٠٠٥ م - بقوله: (يجب علـى «مُجْتمع المَعْرِفَة» أنْ يَتَمَكَّنَ من دَمْجِ كُلِّ فَرْدٍ من أعْضائه والنُّهُوضِ بأشْكَالٍ جديدةٍ مـن التّضامُن. يجب أنْ لا يكون هناك مُسْتَبْعَدُونَ فـي «مُجْتمعات المَعْرِفَة»، طالما كانَتْ «المَعْرِفَةُ» مِلْكِيّةً عامّةً يَنْبَغِي أنْ تكون مُتَاحَةً لكُلِّ فَرْد).

مـن ذلك «المُنْطلـق العمليّ» البَحْت، قبْـل أيِّ اعْتبارٍ آخَر، يُصْبِحُ مـن أهمّ شُرُوطِ الوُلُـوجِ إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو أنْ تكون «اللّغة العربيّة» قِوَامَ «الحركة العِلْميّة» وعِمَادَهَا فـي «المُجْتمعات العربيّـة»، وأنْ تتفاعلَ بحيويّةٍ مـع مُعْطيات «العَصْـرِ» وتَجَلِّيَاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فلا يجوزُ بحالٍ نَفْيُ «اللّغة العربيّة» إلى خَارِجِ «العَصْر»، وإقصاؤها عن عمليّات «التَّحَوُّل الكُبْـرى» على طريق «مُجْتمع المَعْرِفَة». ويَدْعَمُ «التَّقْريـرُ العَالَميّ لليونسكو»[٨٣] قضيّـةَ «الحِفَاظ على اللّغَاتِ الأَصْليّة» لـ«مُجْتمعـات المَعْرِفَة النَّاشِئَة»، ويتصدّى لحالات تَـرَدِّي أحْوال هذه اللّغَاتِ بحُجَجِ هَيْمَنَـةِ «اللّغَاتِ النَّاقِلَة للمَعْرِفَة» فيقـول: (إنّ التَّصَدِّي لتآكُلِ التَّنَوُّعِ اللّغَوِيّ، والتَّسَلُّحَ بوسائل لكَبْحِ انْطِفَاءِ لُغَاتٍ أَصْليّةٍ، أو الارْتِقَاءِ بتعدُّديّة اللّغَاتِ النَّاقِلَـةِ الوَاسِعَـةِ الانْتشار، ليس نِضَالاً من أجل قضيّةٍ نوسْتالجيّـةٍ خَاسِرَةٍ مُقَدَّماً، بَلْ هو اعْتِرَافٌ بأنّ اللّغَات هي أدواتٌ مَعْرِفيّةٌ ونَواقِلُ ثقافيّةٌ وبيئةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة» يُشَـكِّلُ التَّنَوُّعُ والتَّعَدُّدُ بالنِّسْبَةِ إليها ثَراءً ومُسْتَقْبَـلاً). وفي أكْثر من مقامٍ يُعَزِّزُ «التَّقْريرُ العَالَمـيّ لليونسكـو»[٨٣] أهميّة العِنَايَة باللّغَات الأَصْليّة للسُّـكّانِ، ودَمْجِهَا في «التَّفَاعُلاتِ المَعْرفيّـة»، ويقـول: (إنّ مَسْأَلَـةَ مُسْتَقْبَلِ اللّغَات ستكون على جـدول الرِّهانات الرّئيسيّة لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ فالتَّنَوُّعُ اللّغَوِيّ مُهَدَّدٌ فِعْلاً إذْ أنّ من المُحْتمل أنْ يَخْتَفِيَ من السّتة آلاف لُغَةِ المُسْتَعْمَلَة حاليّاً نِصْفُهَا من الآن وحتى نهاية القَرْنِ الواحد والعشرين)، ويُؤَكِّدُ التَّقْريرُ على أنّه: (تظلُّ اللّغَاتُ الأَصْليّةُ الوسيلةَ الرّئيسيّةَ للتَّعْبير عن التَّطَلُّعاتِ والرَّغَبَاتِ الحميميّـة والعَواطِف وعن الحياة المحليّة فهـي «المُسْتَودَعُ الحَيُّ للثَّقافات»، وفي السِّيَاقِ

العامّ لتَعْزيزِ «التَّعَدُّدِ اللّغَوِيّ» لا يُوجَدُ - بالضّرورة - تناقُضٌ بين تَشْجيع «اللّغَاتِ النَّاقِلَةِ» مِثْل الإنْجليزية التي قد تُسْتَعْمَلُ للنّفَاذِ إلى التّكنولوجيّات الجديدة، والإبْقَاءِ على اسْتعمالٍ نَوْعيٍّ للُّغَاتِ الأُمّ).

٨-٢-٣- ب) مُعْجِزَة التّرْجَمَة:

ممّـا سَبَقَ من اعْتباراتٍ حيويّـةٍ، نجد أنّ «حركة التّعْريب» - فـي المجالات العِلْميّة والتّقنيّـة - قضيّةٌ مـن أهمّ قضايا «الثّقافـة العِلْميّة» لتَحْويلِ «العلـوم الحديثة» إلى وَاقِعٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ واجْتماعيٍّ، وتَأْصيلِها في «الثّقافة العربيّة»، وتَرْسيخِهَا في «نسيج المُجْتمع»، وإثْـرَاءِ «اللّغة العربيّة» بـ«المُصْطلحـات العِلْميّة والتّقنيّة»، لتَسْتَجِيـبَ لطبيعة التَّحدِّيات التـي تَفْرِضُهَا «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة»، وتُوَلِّدُهَا مُقْتضيـاتُ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهذا مـا يُؤَكِّدُهُ نبيل علي[٩٩] بقوله: (إنّ اللّغَةَ هـي مَدْخَلُنَا لتَهْيئَةِ المُجْتمعات العربيّة وتَحْويلِهَا إلى مُجْتمعـاتٍ مَعْلُوماتيّة)، ويُواصِلُ ليقول: (إنّ «تَعْريب العلـوم» يُعَدُّ خُطْوَةً مُهمّةً للغاية لتَنْميـة المهارات الذِّهْنيّة وتَوثيقِهَا). وأمّا عبد العزيـز السّماري، فيرى أنّ حَصْرَ «اللّغة العربيّـة» فقط في «تَعْليم الدِّيـن والشَّريعة» يُؤَدِّي إلى: (تَقْسيم وَعْـي المُجْتمع إلى دِينيٍّ وغيـر دِينيٍّ، وهو حَاصِلٌ بالفِعْل، فالمُغَيَّبُونَ عن «العلوم الحديثة» بسبب «الفَجْوَة اللّغَوِيّة» يَظَلُّون مُتَقَوْقِعينَ في ثقافةٍ مَحْدُودَةٍ، وعَاجِزينَ عن فَهْمِ النُّخَبِ الاجْتماعيّةِ في المجالات الأُخْـرى، والتـي تَلَقَّتْ تَعْليمها الحديـث باللّغة الإنْجليزيّة دَاخِلَ أو خَـارِجَ الوطن، وهو ما قـد يُؤَدِّي إلى الانْقسام، وإلى وجود طَبَقِيّةٍ مَعْرفيّـةٍ، لا تَلْتَقِي إلاّ في أشْياءٍ مَحْدُودَةٍ، لكن تَخْتَلِفُ في الرّأي بشِدّةٍ؛ نظراً لاخْتلاف المَرْجِعيّة اللُّغويّة أو الحضاريّة)[١٠٥].

ومـن المُهـمّ أنْ نسوق هنـا رأْي زكـي نجيب محمود في هـذا الشّـأْن، حيث يقول: (إنّ أوضـح مـا يُمَيِّزُ «العَصْرَ» هو «العِلْـمُ» وتِكْنياته، هذا أمْرٌ لم يَعُـدْ مَحَلّ خِلافٍ، فإذا صَبَبْنَـا هذا المَضْمونَ العِلْمـيّ بمُمَيِّزاتِهِ في وِعَاءَيْن من عندنا، كانتْ النّتيجة التي نُريد؛ أمّـا الوِعَـاءُ الأوّلُ فهو «اللّغَة»، فانْقُلْ إلـى «اللّغة العربيّة» نِتَاجَ «الفِكْـرِ العَصْريّ» كما هو يُصْبِـحُ هذا النِّتَاجُ عربيّ القَسَمَاتِ والمَلامِحِ، وأمّا الوِعَـاءُ الثّاني هو قَواعِدُ السُّلُوكِ من

تَشْريـع وعُرْفٍ، علـى شَرْطِ ألاّ تتعارض هذه القَواعِدُ مع مـا تَقْتَضِيه «عُلومُ العَصْرِ» على اخْتلافِهـا فـإنْ تعارضتـا وَجَبَ الإبْقاءُ على «عُلـوم العَصْرِ» وحَذْفُ مـا تعارض معها من قَواعِد السُّلُوك، وإنّي على يقينٍ بأنّ الأنْمَاطَ السُّلوكيّة الإقليميّة المُحَايِدَةَ بالنِّسْبَةِ لأحْكَام «العِلْـم» كَافِيةٌ وَحْدَهَـا أنْ تصون للأُمّة مُمَيِّزاتٍ تُمَيِّزُهَا من سِواها، وبهذا – فيما أتصوَّر – نُسَايـرُ عَصْرَنَا بـ«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونُمَيِّزُ أنْفسنــا بـ«اللّغَة» وبهذه الأنْمَاطِ السُّلُوكية التي نَتَفَرَّدُ بها)[٢٠]. وأمّا محمد عابد الجابريّ، فإنّه يرى أنّ «الحَلَّ الطَّبيعيّ» لـ«مُشْكلة اللّغَاتِ المحليّة» يجب أنْ يَمُرّ عبْر «تَعْميم العِلْمِ ونَشْرِ المَعْرفة العِلْميّة»، وذلك لأنّ: (لُغَةُ «العِلْم» في الوطن العربيّ، من الخليج إلى المُحيط، لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ اللّغة العربيّة، ليس لأنّها كانـتْ كذلـك في الماضـي، وهي كذلك إلى حَدٍّ ما فـي الحَاضِر، بَلْ أيضـاً لأنّ أيّة لَهْجَةٍ دَاخِـلَ الوطن العربيّ لا تَسْتطيعُ أنْ تَتَحَـوَّلَ إلى لُغَةٍ عِلْميّةٍ تطالُ اللّغة العربية، هذا فَضْلاً عن انْتشار هذه الأخيرة واحْتلالها مَكانَةً مَرْمُوقَةً بين اللّغَاتِ الحَيّةِ في العَالَم)[١].

وهكـذا تَتَجَلّى أهميّةُ «التَّعْريبِ» و«النَّشْرِ» في مجالات «الثَّقافة العِلْميّة» على جَبْهَتَيِ «التَّرْجَمَـة والتَّأْليف» لتَعْزيزِ دَوْرِ «اللّغة العربيّـة»، وتَأْصيلِ تَفَاعُلِهَا مع «الحركة العِلْميّة – التّقنيّـة»، ودَمْجِ المُجْتمع بمُخْتلـف شَرَائِحِهِ في أبْعَادِهَا الفِكْريّـة والمَعْلُوماتيّة والثقافيّة والتَّنْمَويّـة. إنّ «التّرْجَمَةَ» لا تَعْنِي فقط «نَقْـلَ المَعْلُومات» من لُغَةٍ إلى أُخْرى، ولكنّها تقومُ بدَوْرٍ رياديٍّ جَنْباً إلى جَنْبٍ مع نشاط «التَّأْليف» في إذْكاء تفاعُلٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ ومُجْتمعيٍّ يُرَسِّـخُ القُدْرَةَ علـى اسْتيعابِ الوَافِدِ المُفيـدِ وهَضْمِهِ وتَطْويعِهِ – لُغَويّـاً وفِكْريّاً –، ليتهيَّأَ المُجْتمـعُ ثقافيّـاً للتَّعَامُلِ مـع المُسْتَجِـدَّاتِ الحديثة والمُتَغَيِّـرَاتِ المُتَسَارِعَـة؛ وهذا ما يُؤَكِّـدُهُ فلاح سعيد جبر، حيث يـرى أنّ سياسة «تَعْريب العِلْم والتّقْنيــة»: (تُوسِّعُ القَاعِدَةَ الجماهيريّـةَ التي تتعاملُ مع «العِلْم» في حُقُولِ الإنْتــاج المُخْتلفة، وتُطْلِقُ طاقات الابْتكار والإبْداع لأوسع قِطَاعَاتِ الشَّعْب)[٧٥].

إنّ الحديـث عن «العَوْلَمَةِ»، و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»، هو – في وَاقِـعِ الأمْرِ – حديثٌ عن طُرُق نَفَاذِ المُجْتمعِ بمُخْتلف شَرَائِحِهِ إلى «المَعْرِفَةِ المُعَاصِرَة»، وسُبُـلِ اسْتيعابِ «العلوم الحديثة»، ووسائلِ «توطين التّقْنيات المُتَطَوِّرَة»، وهذا لن يَتَحَقّقَ

بحـالٍ إلاّ بواسطـة «التَّرْجَمَـةِ» التي تَدْفَـعُ بالمُجْتمع إلـى الانْفِتَاح على مُعْطيـاتِ العَالَم بأسْرِه، وتُمَكِّنُ كُلَّ الأطْيَـافِ الاجْتماعيّة من التّفَاعُلِ معها ومُوَاكَبَةِ إنْجازاتِها. ولهذا فإنّ مـا وَصَفَهُ بول ريكـور (Paul Ricoeur) بـ«مُعْجِـزَة التَّرْجَمَة»[٨٣] يَبْقَـى وَصْفاً دقيقاً لما تَتَمَخَّضُ عنه هذه العمليّة من نتائـجَ بَاهِرَةٍ عند النّجاح في تَطْبيقِهَـا بانْضِبَاطٍ وجِدِّيَّةٍ؛ ممّـا يَسْتَدْعِي الجُهْدَ الجَادَّ لنَقْـلِ «قضيّة التَّرْجَمَةِ» من إطَارِ الطُّمُـوحِ والتّنْظيرِ والتَّمنّي إلـى وَاقِعِ التّطْبيقِ والعملِ والإنْجاز، فكما يقولُ عبـد العزيز السّماري: (المُجْتمعُ العربيُّ فـي أمسّ الحاجة لتوحيد الجُهُود العربيّة لإحْياء «بَيْت الحِكْمَة» من خلال مَنْظُومَةٍ عربيّةٍ مُوَحَّـدَةٍ ومُؤَهَّلَةٍ للقِيام بتَرْجَمَةٍ فَوْرِيّةٍ لمُخْتلف العلوم، ثمّ تَقْديمها للعامّة وللمُتَخصّصين بلُغَةٍ عربيّـةٍ سَلِسَةٍ، وخُصُوصاً ما يَسْتَجِدُّ في العلـوم الأساسيّة في مُخْتلف التَّخَصُّصات العِلْميّـة، وأكاد أَجْـزِمُ أنّ تَكْلِفَتَهَـا الماليّة ستكـونُ أقلّ بكثيرٍ ممّا يُصْـرَفُ على كثيرٍ من الأُمُور الثّانويّة والتّرفيهيّة في حياة الإنْسان العربيّ)[١٠٥].

٨-٢-٣-ج) بين «حِمَايَة البِيئة» و«حِمَايَة اللغَة»:

بالتّأَمُّـلِ في الوَاقِعِ العربيّ، نجد أنّ قضيـة «التَّعْريب» - تَرْجَمَةً وتَأْليفاً - في مجالات «العلـوم والتّقْنيـة» قد لَقِيَتْ إهْمالاً وجُحُوداً كبيرَيْن يَبْلُغَـانِ - في رأْيي - درجةَ الجِنَايَةِ في حَقّ فِكْرِ هذه الأُمّة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِها؛ فـ«التّعْريبُ» هو المِحْوَرُ الرّئيسُ الذي يَقِفُ وراء نجاح برامِجِ «نَقْل التّقْنية وتوطينها»، فلا يُمْكِنُ بحالٍ لأيِّ أُمّةٍ أنْ تُنْجِزَ على صعيد العلوم وتُوَاكِبَ التَّطَوُّرَ التّقنيّ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «الحركةُ العِلْميّةُ» جُزْءاً عُضْويّاً من «النَّسيج الثّقافيّ» للأُمّة، وتفاعلَـتْ - بشَكْلٍ قـويٍّ - مع مُؤَسَّسَاتِهِ وجماعاتِـه وأفْرَادِه. بطبيعة الحَـال، لا يتأتّى هذا الأمْـرُ إلاّ إذا وجـدتْ هذه الحركَـةُ جُذُورَهَا في «لُغَةِ الأُمّـة»، وتَرَسَّخَـتْ مَعَالِمُهَا في «بِنْيَةِ المُجْتمـع»، وبذلك يَتَحَقّقُ ما أشار إليه عبد العزيـز التويجري بقوله: (وفي جميع الأحْوال فـإنّ اللّغـة العربيّة تَحْتَاجُ مِنّـا إلى تضافُرِ جُهُودِنَـا لخِدْمتِها ولتَجْديدِهـا، ولتوفيرِ أسْباب النُّهُوضِ أمامها، لتكـون لُغَةَ الحياة وليستْ لُغَـةَ الكُتُبِ التي نُسَطِّرُ، ولُغَـةَ المُسْتَقْبَلِ الذي نصوغُهُ بعملنا المُشْتَرَكِ في المجالات كافّةً، وليستْ لُغَةَ الماضي الذي نَزْهُو به)[١٠٦].

مـن ذلك المُنْطَلق، فإنّه يَنْبَغِي أنْ لا نَسْتَغْرِبَ من المَوقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّة العربيّة» على خريطـة «التّنْمية والمَعْرفة والعلوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّـة «التَّعْريب والنَّشْر العِلْميّ»، حيث أَمْضَتْ مُؤسَّسَاتُنَا التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة عُقُـوداً من الزَّمنِ تتباكى عليها، وتَتَغنَّى بهـا في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتاً في جامعاتِنا ودُورِ نَشْرِنَا وفعّاليّاتِنا الثّقافيّة واهْتماماتِنـا الفِكْريّة، مُؤكّداً بذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤسِ الفِكْريّ والعَجْزِ المَعْرفيّ والتِّيهِ التّنْمَـويّ؛ وهذا مـا يُؤكّدُهُ عبد العزيز التويجـري بقوله: (إنّ النُّهُوضَ باللّغة العربيّة من النّواحِـي كافّةً يجبُ أنْ يَتَصَـدَّرَ أولويّات العمل العربيّ المُشْتَـرَك على جميع المُسْتويات. ولا أقولُ العمل العربيّ الثّقافيّ التّعْليميّ فحسبُ، بَلْ أقولُ العمل العربيّ العامّ على مُخْتلف الأَصْعِـدَة، لأنّ النُّهُوضَ باللّغة ليس مَسْأَلَةً ثقافيّةً، ولا هــي مَسْأَلَةٌ تَرْبويّةٌ تَعْليميّةٌ فحسْب، وإنّما هي مع ذلك مَسْأَلَةُ السِّيادَةِ والأَمْنِ والاسْتِقْرَارِ والمصير)[١٠٦]. وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ، التـي تُكَرِّسُهَا التَّجَارِبُ الماضية على مدى قَرْنَيْن، فهي أنّنـا سنظلُّ نراوحُ مكاننا، ونَجْتَرُّ أَحْلامنـا، مـا لم نُحْدِثْ تلك النّقْلَـةَ الثّقافيّة والفِكْريّة – نَوْعاً وكَمّاً – فـي كِيانِنا التّعْليميّ والاجْتماعـيّ والإعْلاميّ عبْر توظيـفِ «الثّقافة العِلْميّـة» بأَشْكَالِهَـا المَعْلُوماتيّة والثّقافيّة والفِكْريّـة والتّنْمَويّة، وغَرْسِهَا في نسيج الحياة ومسـار المُسْتَقْبَل، ومن الوَاضِحِ أنّ «اللّغَةَ الأُمّ» هي أداةُ «الثّقافة العِلْميّة» ووسيلتُها ووعاؤها للتّغَلْغُلِ في «خلايا المُجْتمع» ومُكَوِّنَاتِه.

عندما تَتَحدَّثُ «أدبيَّاتُ التّنْمية» عن «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، وتَضَعُ «الاعْتبارات البيئيّة» على رَأْسِ القَائِمَةِ، حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيد اسْتِخْدَام «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتمرارها لأجيالٍ مُتتاليةٍ عبْر السّعي الدّائم لتَطْويرِ نَوْعيّة الحياة الإنْسانيّة، مع الأَخْذِ في الاعْتبار «قُدْرات النِّظَام البيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكَانَاتِهَا، فإنّه لا يُمْكِنُ إغْفَـالُ «الجَانِب الثّقافيّ والمُجْتمعـيّ» في تَأْسيسِ تلك المَنْظُومَـةِ المُتَنَاغِمَةِ وتَطْويرِها؛ فتفاعُـلُ الإنْسان مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّة»، وانْسِجَامُـهُ مع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والمعيشيّة والثّقافيّـة والبِيئيّة، وتَكَيُّفُـهُ مع مُقَوِّمَاتِهَا العِلْميّـة والعمليّة، وقُدْرَتُهُ علـى تَطْويرِ أدواتِها وتوظيـفِ مُعْطياتِها على الصّعيـد المحليّ المُبَاشِر؛ كُلُّ ذلك – فـي نهاية المطاف – هو

العُنْصُرُ الذي يُحَدِّدُ نجاح «التّنْمية» واسْتمرارها. ولذا فإنّنا إذا كنّا نَحْرِصُ على حِرَاسَةِ «مَنْظُومَـةِ التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَطْويرِهَا عبْر برامِج «حِمَايَـة البيئة»، فإنّ «حِمَايَةَ اللّغَة» تَقَعُ حَتْماً ضِمْن تلك الشّرُوطِ والمُتَطَلّبَاتِ والبرامِج؛ لتَأْمين التّفاعُلِ الكَامِلِ بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمـع، واسْتقطـابِ جُلّ طاقاتـه ومَوَاهِبه، والتّوظيـف الأشْمل للإمْكانـات والمَوَارِد، والحِفَاظِ على المُقَوِّمَاتِ الفِكْريّة والتُّرَاثيّة.

إنّه من المَعِيبِ أنْ نرى أنّ بعض الجامعات العربيّة قد وَقَعَتْ في الخطأ الجسيم الذي يَتَوَقّـعُ تَعْليماً رفيعاً، وبَحْثـاً أصيلاً، وتَنْميةً فَاعِلَةً، بينما تكونُ «اللّغَـةُ الأُمّ» في ذَيْلِ قَائِمَةِ اهْتمامات التّخْطيـط وإسْتراتيجيّات العمل، وتَحْظَى عندهم برامِـجُ «التّأليف والتّرْجَمَة والتّعْريـب» بأقلّ الدّعْم المَعْنويّ والمـادّيّ، إنْ حَظِيَتْ بشيءٍ؛ والغريبُ أنّ هذه الجامعات تُخَطّـطُ للّحَـاقِ بـ«مُجْتمع المَعْرِفَـة» وتَأْسيسِهِ في أوطانِها، وتَتَغَنّى بدَفْـع «عَجَلَة التّنْمية» وتَكْثيـفِ أنْشطتِها، بينمـا تُهْمِلُ الدّوْرَ الرّئيسَ لـ«اللّغَةِ الأُمّ» في تَأْسيسِ ذلك «المُجْتمع المَعْرفيّ»، وتَحْقيقِ «شُرُوط التّنْمية»!.

وأمّـا في خِتَام هذا الطّرْحِ، فإنّي أُقِرُّ بأنّ جيلنا قد انْتَهَتْ صَلاحِيّتُهُ في القُدْرَةِ على اسْتيعابِ هذه المُعْطيات، والتّفاعُلِ معها بحيويّةٍ؛ لإحْداثِ تلك «النّقْلَة المَنْشُودَة» - فِكْريّاً وثقافيّـاً وعِلْميّـاً -، فكما قالوا «منْ شَبَّ على شيءٍ شَـابَ عليه»، ولكن يَنْبَغِي أنْ نَهْتَمَّ بما نَتْرُكُهُ لأجيالِ المُسْتَقْبَل، وبما نَزْرَعُهُ في تُرْبَتِهِمْ، وبما نُعَوِّدُهُمْ عليه، فمن المُهِمّ أنْ نَتَأَكّدَ بأنّنـا نَضَعُ البُذُورَ السّليمةَ لـ«حَرَاكٍ ثقافيٍّ» قَادِرٍ علـى التّعَامُلِ مع عَصْرِهِ - عِلْمِيّاً ولُغَوِيّاً وتَنْمَوِيّاً وفِكْرِيّاً -.